علي حسين خلف



خذوني الى بيسان

قصص فلسطينية قصيرة

دار ابن خلدون

علي حسين خلف

خذوني إلى بيسان

قصص فلسطينية قصيرة

لوحة الغلاف
واللوحات الداخلية
للفنان الفلسطيني
توفيق عبد العال

صمم الغلاف:
بلال فتح الله

الخطوط:
خليل موسى

خذوني الى بيسان

قصص فلسطينية قصيرة

الطبعة الأولى
آذار ١٩٧٧ م

ص.ب: ١١٩٣٠٨

خذوني الى بيسان


توفيق عبد العال

(مهداة الى ابطال عملية « منتهى عوض الحوراني »
في بيسان (١٩ ــ ١١ ــ ٧٤م) وحدة الشهيد
صقر بن عبد العزيز ــ قوات الداخل ــ الجبهة
الديمقراطية لتحرير فلسطين ...)

ــ ١ ــ

المكان : بيسان

الزمان : ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ م

المناسبة : حفل اعدام

اريحا لم تستسلمْ . صدقوا (رحاب الزانية) وكذبوا التاريخ . صدقوا كذبتهم ليس المهم اين يداهمك الحلم ، فمشروع المذبحة بحاجة الى تزوير . قالوا ذبحوا ستة اطفال على فخذ امهم . وعندما جاء دورها في الوليمة كانت ميتة ، افقدتهم نشوة الذبح . ظل الطفل السابع تحت مطوى الفراش مغشيا عليه انقذ نفسه بالاغماء واريحا لم تتخل عن اسوارها ولم تنجب رحاب

سقطت « زرعين » فيهوى قلبي .

سقطت « الطيبة » فأغادر الفرح .

سقطت « المرصص » فيسحبني شوقي القديم الى المدينة القريبة ــ البعيدة كالاحلام المبعثرة في ادمغة العابرين واتمتم بحزن :

ـــ خذوني الى بيسان .

ينظر والدي وهو يمتشق البلجيكية ، وافلت من عيونه الى الشجرة في حوش الدار واغني :

حنا رجال الحرب حنا
ضرب المدافع ما يهمنا

تنتزعني امي من غصن الشجرة وتصرخ بفزع اربكني :

ـــ انهم يحاصرون القرية . تعال لنختبىء .

تسقط « قومية » فأرمق جيش الرحيل بخبث الانتصار الطفلي الساذج :

ـــ هيه .. سأذهب الى بيسان .

امرأة نسيت طفلها ، عادت تبكي وتوسدت التلة شهيدة . الطائرات تقصف . صوت رشاش بعيد ، وبيسان اقرب من خاصرتي والدرب طويل .

قلبي يجعل بيسان بحجم راحة اليد . والسنوات الاربع لا تدري طعم المجزرة . يمضغ شيخ مسن حزنه بفرح مغموس بالدم والدموع ، وبسخرية ولوعة ، راح يهزج :

عا علالي كفر كنا برجم الرقطى وغنى
وارحلوا يا قوم عنا هالوطن ما هو وطنكم
هالوطن هذا وطنا

يغرق في السيل وانسى احلامي وتنتصر الاكذوبة ، وتظل كنعان شامخة في قيد السبي ، واخبار عكا ليست مشجعة .

سقط المركز .

يقفز الجميع .

ـــ انهم آتون الى بيسان

اصفق بفرح طفلي واتحدى :

ـــ سنقابلهم !

تنهال الدموع حولي ، ولا افهم شيئا .

اتعلق بيد ابي المنتصب كمارد جبلي تكسرت عند اقدامه كل موجات الغزو ، يتمتم بكبرياء :

ـ انهم في مركز البوليس .. المحاكمة غدا . سيعدمون الثوار ! !

تدق امي على صدرها . اخواها ضمن وليمة الغد . تنوح كنسر ذبيح :

ـ بارودته بايد الدلال اريتها
يا موت قلبي ليش ما شاريتها
بارودته حملت صدى ع اجرابها
حملت صدى واستوحشت لاصحابها

يفزعني نشيج أمي فأبكي بحرقة ومرارة وفزع . يقول صاحب البيت :

ـ كلها اسبوع وتنفرج الغمة !

يبتسم والدي بسخرية :

ـ أكلنا الخازوق وخدعونا بالاسبوع !

وبيسان القريبة ـ البعيدة مثل نبات الست المستحية تنكمش علينا ، وتحرق قلبها في الريح .

اوراق مبعثرة ، وبقايا ملابس واحذية ، ودكاكين مشرعة دون بشر ، واقدامنا تدق الشارع كترنيمة بدائية وكطبول طوطم مجهول نكتشفه الان . كان الشارع كئيبا ، قاتما ، شديد الغربة حتى الضياع . فسقط قمر بيسان في صدري وتلاشت الامنيات القديمة . تغريني الدكاكين المشرعة بالسطو على علب الحلوى . ودموع امي تغريني بالصمت . وقبضة والدي اقوى من محاولة اجتيازها ومعانقة بيسان ولو على حبة حلوى . صداقة قديمة بيني وبين هذه المدينة ـ الخراب . كانت عروسة حلمي مثل الناصرة وبحر حيفا وبيوت التنك في « حواسة » والعقود القديمة (بفحمه) .

نصل ساحة الموت عند مركز البوليس . خلف البوابة الجانبية ، نسوة ورجال ممنوعون ينتظرون جثث شهدائهم . كانت المرأة التي تتأخر « جثتها » تموت بالتقسيط لبكائها على كل جثة خارجة منتصرة من الساحة ، وفي المدخل الاساسي غرفتان لتحقيق وهمي . وبعدها الساحة الكبيرة حيث يصطف القناصة الصهاينة والى جانبهم ضابطهم . وفي المقابل ارتال من الاسرى بانتظار الوليمة .

جاء دوره .
نادوه بالاسم .
ـ ايها الفلسطينيون حاولوا ان تجدوا اسم هذا الرجل لننصب له تمثالا في دمشق ـ
خرج من بين الارتال صقر تشققت يداه من فلاحة الارض والعمل . بيسان كلها تقبض قلبها ، والجليل ينبت الحور والسنديان . والساحل يسقط من عكا حتى غزة .
تزغرد امرأة خلف السور . صرخ الضابط الصهيوني « اذبحوها » .. ؟ وصقر بيسان يحدق بعينين واسعتين كمرج ابن عامر ، وشهية البطولة كعنب الخليل حلوة المذاق .
صرخ الضابط « نار » ..
حدق صقر بيسان . فأطلق الجنود زخة رصاص .
انكمشت اطراف عباد الشمس وظل واقفا بعناد افقد جلاديه اعصابهم . عيناه كلغم لم ينفجر بعد . يشتبك معهم بعينيه . لقد جرب الاشتباك بالسكاكين ، بالعصي ، بالايدي ، بالبنادق . وها هو الان يصرعهم بعينين حادتين كطلقة .
يصرخ الضابط مرة ثانية :
ـ نار .. ! !
حزمة اخرى تطوق صقر بيسان . يبدأ بالهبوط التدريجي البطيء حتى تستقر ركبتاه على الارض . فيتشبث بها ، ويظل رأسه ووجهه منصوبين كبيرق .
تزغرد امرأة اخرى .
يحملق الضابط فزعا .
يهمس جندي من القناصة لزميله :
ـ ما الذي جاء بنا الى بلاد الشياطين ؟ ! ..
يهجم رجل من المتفرجين على الضابط فيتوسد الارض قتيلا .
عيونه كمرجل دم تلطخهم وتتحداهم .
يصرخ الضابط للمرة الثالثة وبفزع هستيري :
ـ نار .. ! !
يتقلد وساما ثالثا ، وتخور ركبتاه . يمد يديه الى الامام

ويغرس كوعيه في التراب ، وبباطن يديه يحتضن وجهه ، ويظل يحملق باصرار وقوة ، ويجاهد لان يظل وجهه مرفوعا كسارية .

تفجر وجه الضابط دما . هجم عليه بجنون . وامسك فروة راسه وافرغ مسدسه في عينيه وفمه . وقبل ان يبدأ ، كان قد نال وساما « بضقة كبيرة » . هي اخر ما استطاع المناضل السوري ان ينتقم بها .

سقط صقر بيسان .

وعشرات المناضلين الفلسطينيين سقطوا .

فاغمضت بيسان جفنيها وتكبلت بالاسر والموت والانتظار .

— ٢ —

المكان : بيسان .

الزمان : ١٩ — ١١ — ١٩٧٤م .

المناسبة : لقاء مع صقر بيسان .

الوطن اجمل من الخارطة وجواز السفر . ومضاجعة الحشائش المتفتحة الشهية للنمو التلقائي تزهر حنونا فاقع الاحمرار . وكشاهد على عناق الارض يرفع « الفقع » رأسه ، وتهوم اشجار الزيتون بترنيمة شرقية خالدة .

فلماذا يصير الوطن قنبلة ؟ !

وتتحول سنابل القمح الى شظايا وقذائف فوسفورية ؟ ! !

وبدلا من الملاهي يعبث الاطفال ببقايا طائرات الميراج والفانتوم واغلفة القذائف الصاروخية .

هنا يصير الوطن بلون الدم . يغريك في العناق والالتحام حتى الشهادة .

هذا ما فرضه مطوروا فكرة رحاب الزانية وتهديم اريحا وذبح الفلسطينيين .

لم تكن الفكرة لماذا لا يحيا الانسان .

عاش الانسان هنا ، وتبدلت لغاته ، ازياؤه ، الهته . ونحن لا نقتسم التاريخ ونساومه .

كانت فلسطين كنعانية جميلة مثل النبيذ المعتق ، شهية كالزيتون ، عنيدة كالسيوف الفولاذية . كانت فلسطينية تفترش الساحل وتلتحف الجبل . حثية تزرع عنب الخليل ، اكدية رسمية للمخاطبة . يبوسية تشيد القلاع والحصون ، امورية تفتنها الجميلات ورياح البرتقال والليمون .

كانت كل شيء ، متحفا ، قلعة ، وقصيدة ، عبدها بعل فعبدته .

ولهذا نرفض اقتسام التاريخ وتزوير نفينا في الداخل والخارج .

فهل نحلم بعيدا ؟ !

الليلة يأتيها المخاض عبر النهر . ولدت عنقود عنب وخمس رصاصات كلاشنكوف وشهيدا في اول بلاغ يفتتح جسر الزيتون . نتناسخ ، نتسابق ، على سجل الشهداء ، فنملك اسرار الدنيا وحكمة بابل . نحصي عيون الأطفال المسبية ، عدد القتلى في الميدان، اشجار البيارات ، وجوازات السفر القديمة . عندها نعقد صداقة قوية مع الشمس ، فنزور راجلة كل القرى والمدن المحتلة .

يزعق بوق الانذار ، وما اختفينا .

كنا في طين جدران المنازل ، في لحاء الأشجار ، في زند الشغيلة والفلاحين ، وفي ثوب كل صبية وعاشقة تجيد زركشة المنديل وصنع المولوتوف .

ما زالت بيسان منكمشة على صقرها القديم ورفاقه ، جاءوا بمهاجرين الى منازلنا المهجورة ! ادخلوا اولادهم مدارسنا الجاهزة . ركبوا سياراتنا ، وحصدوا قمحنا وزيتنا وأسماك نهر الاردن عند الباقورة .

فعلوا كل ذلك وما انتهينا

حاولوا التأقلم مع بيسان ، تفضحهم جدران المنازل ، أوراق الاشجار ، غيوم المطر وهي تبحث عن كوفية تبللها قبل الوداع . ولأن بيسان ليست قطارا فمن حق ركابها الا ينزلوا في اول محطة . ظلت بيسان وفية ، تغمض عينيها ، بانتظار الفارس الجديد . جاءها صاروخ كاتيوشا ، فهتفت :

ـــ اهلا بالعائد صاروخا . . ! !

تفتح بيسان يدها المقبوضة منذ الاحتلال ، فيطير صقر دمشق

وتتبعثر صقور فلسطين . ثلاثة يقتحمون الجميلة المسبية ويعانقون ذكريات الاباء والاجداد ، ويسيطرون على بناية في شارع « هاجي يوريم » . يعلنون للبشرية ، ثلاثة من عشاق بيسان يحبون الدنيا والعمال والوطن يرغبون في انقاذ بعض رفاقهم .

تهيج الدنيا الغربية كثور وحشي وتقول « مخربون » !

تهيج الدنيا الشرقية وتقول « وطنيون يريدون وطنهم » .

وابطال بيسان يحبون الموسيقى واحتساء الشاي في البيادر الصيفية .

تقفز بيسان الى اعمدة الصحف . يوزع البيسانيون الحلوى ، ويحاول بعضهم معرفة الاسم الحقيقي للشارع « هاجي يوريم » . يغضب القصر الاردني ، فيداهم قرى الغور ويعتقل الفلاحين . تهتز الوزارة الاسرائيلية ، فيفرج الفدائيون عن النساء والاطفال . وامواج من البشر الغرباء يتحلقون حول العمارة بانتظار رؤية اللحم الفلسطيني ميتا !

ابو دره يطل من كوة قبره ويشد على ايديهم ويتمتم :

ــ سلمني الامير عبد الله وما نسيتموني !

شهداء كفرقاسم يمدون اعناقهم ويهمسون :

ــ قتلونا على بوابة القرية ذاك المساء ... وما نسيتمونا !

شهداء الثلاثة الحمراء ينشدون :

ــ بلادي .. بلادي

ورجع اصوات سجناء الرملة وصرفند وشطه يدق العمارة بحزن رتيب :

ــ يا ظلام السجن خيم

اننا نهوى الظلاما

نزيه الجرس يختصر المسافة بين السيلة الحارثية والزرقاء ، ويعرف ان الموت قريب . لأن قيادة رابين لا تبالي بأرواح الرهائن. يتخيل امتزاج حارات القرية وهي تشجعه :

ــ نزيه الجرس .. ارفع رأس السيلة الحارثية ، ودع ابو دره يستريح !

يأتيه الصوت كأغاني الرعاة والحاصدين مجلجلا في البناية

المسيطر عليها . يمتشق الكلاشنكوف ، ويصد محاولة ثانية لاقتحام المبنى .

ها هو عبد الرحيم محمود ، شاعر الارض والاطفال والثورة ، يفتح دفتر مذكراته ويكتب لمحمد ابو ديه (محمد عيد محمد) قائد عملية « منتهى عوض الحوراني » في بيسان ، قائلا :

(مررت بقريتكم « صوت باهر » قبل عرس القسطل . كان والدك يحب الشعر ومنعك من تفحص مجاندي وامشاط الرصاص . اذكر عانقتك قبل رحيلي وقلت سيصبح ثائرا يأخذ دوري ويكمل المشوار . لم اكن نبيا يرجم الغيب كالعرافين وانما كنت فلسطينيا يرث السلاح جيلا بعد جيل . واذكر اني اهديتك طلقة فارغة لتحشوها من تراب فلسطين وتذكرني في الطرقات الملغومة . بلغ تحياتي لوالدك وقل له سيزوركم عبد الرحيم قريبا للتهنئة) .

تعلو الاصوات حول البناية « اذبحوهم » .

تلكز عاهرة من « فينا » زميلها الهارب من « بون » وتقول :

ــ سأجفف عيونهم واضعها عقدا للزينة ! !

يطلق الفدائيون طفلا يحملونه رسالة الى اهالي بيسان ، فيلتقطه الجنرالات ويخفون الورقة في جيوبهم ويبتسمون لمصوري التلفزيون .

يذكر أبو ديه الآن شوارع المخيمات وصوت أبيه الهابط في مظلة :

ــ سأفتخر بك يا محمد .. وافتقدك الى الابد ..

يستحضر وجه صالح رأفت وابو علي اياد من احراش جرش وعجلون . يؤدي التحية العسكرية ويعرف ان الوطن يصير مذبحة عندما تتقاسمه قطعان النازية الجديدة مع الهاشميين . يحدق في الرهائن ويهمس لنفسه :

ــ ضحايا مثلنا فلماذا لا يقاتلون معنا ؟ !

جنود رابين يطلقون النار . صار الوطن قريبا من شكل المتفجرات ولون الحنطة . يقول ابو ديه :

ــ سيقتلكم رابين : وستعرفون قيمتكم في حساباته . او تفهمون ؟ .

قال احدهم :

ـ سينفذون شروطكم لانقاذ حياتنا . ان جوهر عقيدتنا يقوم على حماية الفرد . . !

نار رابين تقتله قبل ان يكمل حواره . ينظر ابو ديه باشفاق ، فيتحطم زجاج النافذة .

« جباليا » شاهدة منذ الصباح الباكر . عبد الفتاح الكحلوت يبرق لسكان المخيم :

ـ اطمئنوا . . . اننا آتون اليكم .

فتنتشر الاغاني والزغاريد والتهاني . يهبط الكرمل مهنئـــا فيرقص سعف نخيل بيسان ويشمخ سورها وتصطاد سمكا من نهر الاردن ، رغم حراسة الجيش الاردني . . ! !

جيش رابين يطلق النار .

« بيباس » احد الرهائن يصرخ :

ـ من غير المعقول ان يقتلونا . . يجب ان تجري المبادلة !

يبتسم الفدائيون ، ويستذكر عبد الفتاح رفاق المخيم وعـــين جالوت وصقر عبد العزيز . وبيباس راحل من وطنه في فرنســـا ، ايران ، الارجنتين ، الحبشة ، انجلترا ، اليمن ، خارج من دائرة الانتماء الحقيقي حيث كان ، الى كبر عملية سطو دولية في التاريخ الحديث . يذكر بيباس الان كيف احضروه ، ورتبوا جواز السفر ، ووعدوه بالجنة التي صنعتها الايدي الفلسطينية .

بيباس رهينة فهل يفكر رابين بأطلاق سراحه . . ! !

كان يفكر ان حياته ـ بنظر قيادته ـ اثمن من مئة فدائـــي فلسطيني واغلى من مخيم وقرية مجتمعين . فكيف اذا كان الحجز لاكثر من خمسين رهينة يحملون وهم بيباس عن ارتفاع ثمنهم ورخص اثمان الطرف الاخر ؟ !

هجموا عليه . كان الرصاص المخترق الجدران ، واصوات المتفجرات ، تمنعه من تحريك لسانه المثقوب . يدقونه بايديهم ، ويدوسون على وجهه بنعالهم . كان يود ان يقول :

ـ ايها البيسانيون الجدد . . انا واحد منكم . يهودي مثلكم . صهيوني مثلكم . وموظف في خدمة الدولة . انا رهينة يساوي مئة فدائي ومخيم وقرية . . انا . . انا . . !

ضاع صوته في فمه ، وهم يفرشون لكماتهم وارجلهم في وجهه وكل اجزاء جسده ، ويحاول احدهم قطع اذنه . ينظر بعينين ذابلتين ، يصرخ في ذهنه :

— بيباس الذي وعدتموه بالجنة ، تأكلونه حيا !

— احملوه !

يرفعونه بقسوة الى النافذة المطلة على حفلة اكل الجثث وحرقها برقص هستيري . يقذفونه فيهوى والجمهور يصيح فرحا :

— شخص اخر .. شخص اخر ! !

وعندما يلامس جسد هارض بيسان يفقد كل شيء ، الجنة الموعودة ، والوظيفة العسكرية ، والصهيونية . يرقص شبان على بقايا جسده ويسكبون الكاز عليه ويضيفونه الى المحرقة ! !

جاء الى فلسطين وهو لا ينس حرق والده في معسكر بوخنوالد واحتفظ بذرات تراب من المقبرة كبديل عن الرماد . فمن سيحمل رماد بيباس ؟ ! ! ... ومن سيقنع امثاله بمغادرة الجنة — الحلم الى الوطن — الحقيقة ؟ .

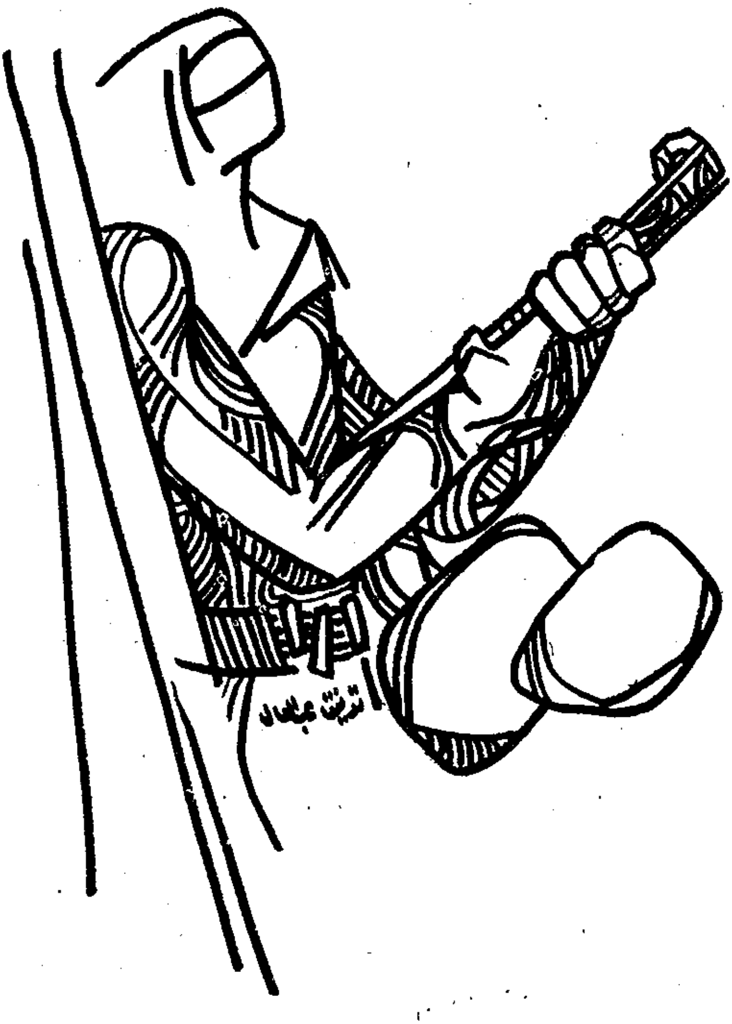
عهدا يا بيباس لو عرفت أهلك والشعب القادم منه ، لأرسلت برقية تعزية وقلت :

— حرقوا بيباس في الجنة التي جروه اليها .. ! !

عــــدن — ١٩٧٤

نشرت في مجلة « الثقافة الجديدية » — عدد يناير/فبراير ١٩٧٥ — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

الصفوف الأربعة



« الـــى حبيبتـــي
هــؤلاء هــم أبنــاء
وطنـــــي »

ـ الصـــف الاول ـ

كأختلاس أمنية يحسها عاشق فوق مشنقة ، كــان يختلس الامنيات من تحت الكرباج والسجن والضرائب ويحلم بالزنابق فوق بندقية . خلفه تنبت شجيرات السرو الحديثة ، ويغطــي الجبــل الزيتون . وامامه حقل واسع من المستقبل الغامض الحزين . دس رأسه تحت شجرة صبار ، ومرت طائرة دون أن تلقي الحمولــة . تنفس فامتلأت خياشيمه بذرات التراب ، ووخــز الشوك كتفــه الايسر . لقد علموه ان يحلم ، وحذروه من الحلــم العلنــي ، لان البوليس في الشوارع . ولكنه الان يعب حتى الثمالة من الامنيــات السجينة ، وتزهر في ذهنه صورة البيدر الجديــد ، والحاكــورة المحررة ، والارض المستردة .

تحسس البندقية البلجيكية التي اشتراها برأس البقر الوحيد، وباع ثلث غلة البرسيم ثمنا للطلقات . ود لو يضحك بأعلى صوته! تخيل العالم المقلوب على رأسه يتحــداه ، ويسخر منــه . حبس ضحكته وهو يزحف نحو منعطف قريب ، وضفائرها تحوم حولــه ، نقيــة كقطرة مطــر .

ـــ ليتني القاك في الحارة الشرقية !

ادفع نصف عمري لقاء لحظة عنـــاق

تحت السنديانة ، واقبل بالشنق بعدها !

تنهـــد ، وتابع تمتماتـــه :

ـــ أمس في عكا ، صلبوا اخي وظهره الى الجدار . لقد قتلوا اكثر من نبي مسلح ولد تحت القصف ، ونهض من ركام التدمير في القرى ! لا تحزني ، فهذا هو قدرنا ، ومصيرنا ، وعلينا ان نواجه كل المشانق وشوارع الاسفلت المزروعة بالبوليس !

صمت للحظة ، وهو يواري رأسه ، وينزع الكوفية والعقال، وبعد ضحكة مكتومة قال بصوت مسموع :

ـــ انها تنفع رسالة ! ولكن من سيوصلها ؟ ! لعلها تبكي الان بانتظار عودتي ، حسنا ، لتتعلم البكاء المشبع بالامل والضجـــر ، ولتدمن الحزن الموقوف على عقارب الساعة فقـد احترفنا الالـــم رغم انفنا . آه ! متى ينتهي ليل الجريمة ؟ ! متى ؟ !

سمع صوتا يناديه ، فاصاخ السمع . كانت الكلمات المتقطعة تأتيـــه مـــــن بعيـــد :

ـــ عبد الرحيم .. اسمعك تتحدث ! هل عندك أحد ؟

ابتسم بعد ان سمع كلام زميله « محمود » ، ثـــم قال وهـــو يضع يده كالبوق حول فمه :

ـــ اعذرني يا صديقي ، انني احكـــي مـــع « المسخوطـــة » فشيطان الادب نزل علي ! تصور ! نزل علي الان ..!

ـــ أحلم يا أخي .. فلا أقلّ منه !!

صوت انفجار على التلّة المجاورة ، أرغمه على الانبطاح، عانق الارض بالتصاق شديد . وضع طلقة أخرى في « بيـــت النار » وصرخ على زميلـــــه :

ـــ انهم يقصفون مجموعة ابـــو درويش .. آه ، لو تركنـــا الانكليز لوحدنا! نحن وهؤلاء الحثالات! ولكن سنريهم! سنريهم معا!

ـــ اسمع لنزحف نحو الزيتون .. وهناك سنتدبر الامـــر !!

الطيران ما زال يدور في المنطقة . ومجموعات من الجيش البريطاني تحاصر القرى المجاورة ، وتضرب الطوق حول غابات الزيتون . أما

سكان المستعمرات الذين قدموا مع الحملة ، فينتظرون خلف الجيش الانجليــزي .

ــ الحق علينا ان نقبل بمثل هــذه القيادة ! باعونــا لنوري وعبداللـــه !

ــ والمصيبة « ابو لفــة » وافق على هذه اللعبــة !

سنريهم جميعا ، سنريهم !

كانا يزحفان نحو الزيتــون ، وقصف الطائرات لا يتوقــف ، وكذلك طلقات البنادق الانجليزية والالمانية والكندية ، وهمهمــات تأتي من الجبل ، وصوت محمود النابلسي يغني باهزوجة :

فلسطين يــا زهرة البلدان .
لا تعتبـــي
لومــك علــى من خــان !
حنــا روينــا سيوفنــا مــن القــوم
بأرض العــدا ، مــا بنقبلــك بامان !

وصلا الزيتون . كل منهما يلهث ويحتضن البندقية . المجموعة الباقية تقترب منهما ، وعندما تجمعوا قال عبد الرحيم بحماس :

ــ سنقوم بعمل حزمة نيران على هذه الطائرات الملعونة ! سنقطعها حتى لا تقضي على الجماعــــة لنتفرق على شكـــل دائرة كبيرة . فكل اثنين يصوبان عليها .. سنجرب !!

الاجساد تهرول الى مواقعها تحت الزيتــون . وفي الفضاء تتجول الطائرة بأمان . تقصف كيفمــا اتفق ، وزخات رشاشهــا تثقب الزيتون المثمر . استند عبد الرحيم الى جدار سلسلة حجرية في وضع يهيء له الاطلاق على الطائرة . وكل واحد مــن الباقيــن حاول أن يجد لنفسه موقعا . الناس في الجبــل عندما يغــادرون المدينة ، يعبدون حتى أرصفة الشوارع ، شرط ان يتحقق حلمهم . ولم تحتل الصدارة في ذهن عبد الرحيم ارصفــة شوارع نابلس ولا الطريق الترابي الى الناصرة فقط ، ولكن مريم التي تحلم بأن يحرر خطواتها من المراقبة والحكم العسكري ، كانت تتربع اوسع دائرة أمل عنده الان . فجبينها ظل شامخا قبل وبعد الطوفان . انه يدرك الان طعــم الامن والسلام ويعرف الثمــن .

كانت الطائرة تتجه نحو الزيتون ، بعد أن فرغت مــن قصف التلة ، وعلــى الارض رصاص واشتباكات متقطعــة . الاغانــي

والاناشيد والهتاف والصراخ ، تختلط تحت الاشجار وتشكل سيمفونية بطولة حزينة ، الطائرة لا تتوقف عن القصف، والرصاص يصعد الى الاعلى. الناس يموتون في الاسفل، عندما ثقبت رصاصة الوقود الذي سرعان ما احترق . كانت الشمس عائدة الى المغيب، وقبل ان تحتجب ، نهض الجريح عبد الرحيم ، واخذ يزحف ، بحثا عن موقع اخر .

ـ الصف الثاني ـ

يبحث في الاخرين عن هوية . ينتمي اليهم . يحبهم ويقاتل في صفوفهم . ولشد ما كانت ترعبه الاصوات الراكدة كمستنقع ، بانتظار عربات النقل الى الوطن . كان الناس ، وكان هو ، يثقون، ويثق بالقائد (ج) ! وما يميزه عنهم انه لم يقبل بثقة خاملة ، كسولة ، ولا تبعية « عميل غير مدفوع له » !

منذ مدة انقطع عن متابعة الجرائد اليومية، التي كان يشتريها بحجم مصروفاته المقررة . وبدأ يشعر بالقرف والغثيان عندما يتصفح المقال الذي تظهر خلفه فاتورة الحساب ! وكان دائما يتمتم « مجتمع ليس لنا » !

نمت فكرة معارضته لرأي الشيخ « الكردي » الذي كان يقسم العالم الى (مؤمن) و (وكافر) من خلال زاوية الغرفة اليتيمة التي تستوعب كل الاسرة . في هذه الزاوية كانت « غرفة » مكتبته وغرفة نومه وصالة طعامه ! وفي الركن الاخر ، عند « المصرف » كان « الحمام » . وتحت مد الفراش كانت (غرفة) الجلوس وامام البيت ثلاثة براميل كبيرة لتخزين المياه ، وبجوار الحوش يقع « المرحاض » المغطى بابه « بالخيش » !!

كان يتطلع حوله بحزن والم عميقين ، ويرغب في ان يبصق بوجه الشيخ الكردي الذي بنى عمارة من ثلاثة طوابق واشترى ثلاثة افران من اتباعه واشترى زوجة سنها ستة عشر سنة بينما كان قد تجاوز السبعين !! كل ذلك نتيجة احترافه طريقة صوفية يعتاش منها !

انه ما زال يذكر سجنه الاول عندما اشترك بمظاهرة ضد « تمبلر »،وهتف ضد « حلف بغداد » . ويذكر اكثر ان أمه رهنت « كرت المؤن » لمدة ثلاثة اشهر حتى تدفع رسوم الكفالة . ومن يومها والفكرة عنده تنمو باتجاه آخر . واصبح العالم لديه نصفين، الفقراء والاغنياء . وفي المرة الثانية عندما اعتقلوه وهو يوزع منشورات بمناسبة « الوحدة » ، عجزت أمه عن توفير الكفالة فأمضى ثلاثة اشهر في السجن ، ونشروا الاستنكار نيابة عنه . ومن يومها اخذ يقرأ المنشورات « الاخرى » بنهم شديد ، ويدسها تحت قميصه عندما يذهب الى البيت ، لينتظر نوم الجميع ، وعلى ضوء السراج « نمرة ٤ » كان يسهر مع المقاومة الشعبية والحقيقة *

الشارع شبه خال من المارة . وهواء اخر الليل يلفح وجهه وهو مدثر « بالكبوت » الذي يسيج رزمة من المنشورات . هز رأسه ، كمن يلقي عن نفسه كاهل الذكريات القديمة ، وحدق في الشارع وزوايا المحلات التجارية . كاد يبتسم وهو يتذكر مضمون مؤتمر القمة ــ الطبخة ، الذي يحمله بعشرات النسخ . اخذ قلبه يدق وانفاسه تكاد تختنق وهو يسحب بعض المنشورات من «عبة» ثم يلقيها على الرصيف ، ويشد يديه بحركة تمثيلية وهو يسرع الخطى ليبتعد عن المكان .

الهواء بارد ــ جاف ، وارنبة انفة كساها الاحمرار وهو يمشي بخطى حذرة ، بطيئة في الشارع الاخير المقرر له . وفي هذا الشارع صار اكثر خوفا ورعبا واكثر رغبة في انهاء المهمة . فاذا ما اعتقلوه سيحرم من امتحانات التوجيهي ، وهو يراهن كل عمره عليها ، كما يراهن الناس في هذه الايام على هذه السنة (٦٤) عسى ان تعطي نتيجة للقلق والضياع ، ويراهن هو على العكس. وباشتداد قلقه وخوفه ، اخذت الصور الموهومة تتجدد على الجدران ، « الكيلاني » ، « عبيدات » ، (مضر) رؤساء التحقيق والجلد . هذه المرة ، ربما تتقاذفه اياد جديدة .

ــ لا ادري . ربما ! في هذا البلد تتغير الوجوه والمضمون ثابت لا يتغير الا نحو الاسوأ .

***المقاومة الشعبية نشرة الحزب الشيوعي الأردني و « الحقيقة » مجلته الشهرية وكانتا تصدران تحت هذه الاسماء في الستينات .**

دس بعض المنشورات من تحت فجوة باب الدكان ، وشعر ان رجلا ما يتحرك في الداخل . لم يستطع الجري ، فقد احس بثقل ركبتيه ، وكأنهما مقيدتان .. وبتثاقل أبطأ كان يدس ما تبقى بكميات متساوية تحت كل باب متجر أو منزل . التفت خلفه فعقد الخوف لسانه . رمى كل ما تبقى معه ، واخذ يعدو في الشارع . اصوات اقدامه ، والاقدام الاخرى التي تتبعه هي وحدها الساهرة في مدينة ينام اهلها عند العاشرة . وعندما كان قد أمسك به ، لم يكن لديه أية منشورات .

ـ الصف الثالث ـ

ـ ... المدينة التي صحت من نومها على القذائف والدبابات ، تتألم ، تتهدم ، ثم ترفع رأسها وتعاود الصمود . والناس في الاحياء كذلك ، يتألمون ، يتهدمون، ثم يرفعون رؤوسهم. الدخان يعقد حلقات كثيفة من الدوائر المبهمة فوق العاصمة ، بينما تتدافع في الازقة اجساد المقاتلين وهم يبنون المتاريس ويساعدون الاهالي ....

... كانت هذه هي البداية ..

وبينما كان الحي الغربي يهزج « الموت ولا المذلة » اندفع شاب في الحارة الشرقية الى زقاق فرعي وهو يصرخ « نريد هانوي » ثم كمن خلف جدار مثقوب بانتظار دبابة او آلية . وفي الجبال ، وفوق اسطح المنازل ، وبدلا من الرايات والاعلام ، وقف العزل من الناس بكل اجسادهم يصرخون باستنكار « الله اكبر ع الظالمين » ..

... المدينة ـ العاصمة بعد سنوات من الراحة الهامدة والكسل الاجباري تسللت من تحت كرابيج المباحث والارهاب ورفعت رأسها فامتلأت بالرايات ، وبدأت تتنفس رياح الشمال برئتين دون رقابة . ولاول مرة تخندقت في احيائها بندقية .

الناس يتقاسمون الارغفة والماء . اما الحزن والموت فهما الوحيدان اللذان غمرا المدينة بالمجان . جندي « بادية » كان يهرول هاربا وهو يصرخ « يلعن ابو الفداوية والله اقوى من اسرائيل » !

بينما كان جندي اخر يقطع اصبع امراة ليخرج منه خاتم الزواج ! !

الاحياء الفقيرة كانت مزدحمة كخلية نحل . ومن ازقتها تنبعث الروائح الرطبة الممتلئة بالعفونة والدم . وعلى الجدران حيث امتلأت الملصقات كان الرصاص والقذائف يرسمان لوحة تجريدية يغلب عليها اللون الاحمر .

ميليشي اقتنص دبابة .

فدائي دمر ثلاث سيارات سكاوت بالار — بي — جي — .

شبل قتل رائدا بمسدس « نص جولد » .

وصوت ميكروفون الجامع يشجع الناس على الصمود ويشجب المؤامرة .

رجل مسن في الميليشيا ، يحمل « الكارلو » سد فجوة الدخول الوسطي في الحي . امرأة في وحدة الاسعاف جرحت ثلاث مرات ولم تتوقف عن العمل . هي وأم احمد انقذتا عشرة فدائيين ، كان الجيش قد اسرهم . الناس في الحي يتحدثون عن الممرضة « نهى » وام احمد وعن الباقين .

آه لو كنت معنا ! ! .. المهم

هجوم ! تحبس المدينة انفاسها . تتنفس بخياشيمهم وهم يتربصون ويفتحون صدورهم . الشوارع الرئيسية خالية تماما . والسيارات تم تهريبها الى الاحياء المنعزلة او الخارج . الاطفال وجدوا مادة للخوف والعبث واللامبالاة . اما الذين شارفت اعمارهم سن الموت فقد كانوا يتنسمون ببقايا تعلق في الحياة ويتمتمون « سنموت شهداء بدلا من الموت كالبهائم » ! !

الجولة الاولى تنتهي .

ترفع العاصمة راسها بكبرياء وشموخ . الاحياء تتصافح والحماس يغطي كل الحارات . وبعد الجولة الخامسة ، كان المداهمون قد شارفو الانهيار ، والحشد يزداد . والايدي القابضة على العاصمة لا تتراخى برغم الجراح . وبعد الجولة العاشرة ينتشر الغثيان والموت السلمي ، وتتراخى الاصابع . تسقط عن العاصمة التي ما زالت بحجم اليد .

هذا كل ما حدث يا سيدي . هل فهمت الايام العشرة ؟ ؟

قال الشاب لزميله القادم من الخارج وبصوت منخفض حتى لا يسمعهما المخبر المتفرغ لكل بيت وزقاق وثنية شارع . ووسط عاصفة كئيبة من الحزن غطت وجه الاخر ، قال :

ـــ والسلاح ؟

ـــ البقية في حياتك

ـــ وكيف لم يعتقلوك ؟

ـــ هل تظنهم يقدرون ان يسكتوا صوتنا كلنا ، كل الوقت ؟ ! البعض صمت . المهم تعال ، فسنكمل الحديث ، ونجد حلا . سارا ، وكان خلفهما المخبر ، والرعب ينتشر في كل مكان .

ـــ الصف الرابع ـــ

يلهث ، يكح . يترنح من الاعياء ، واليد ما زالت ممسكة به :

ـــ الم اقل لك انني كنت العب ! ؟ اوه ما اقس هذه الروائح النتنة ! ؟!

ـــ احتمل . هذا السرداب هو اقس ممر نجتازه . ربما يفتحون علينا النار بعد قليل . فلا تترنح كالسكران .

ـــ لا تكوني قاسية الى هذا الحد ! الجرح لا ينزف في داخلي فقط انه فوق الجلد ايضا ، اولا تبصرين ؟ !

ـــ ابصر ، المهم انتبه . لا تظهر كل جسدك الان . الجسد المطارد لا ينتصب في الشارع العام كالاعلان .

يحس بالغثيان . الصور تختلط . تبدو ضبابية ، هشة ، يمد يده الى قلبه ويصرخ من المغص ، يتلوى كالافعى :

ـــ انت مرة اخرى ؟

ـــ انا وفي كل المرات ، الشرطة في الشارع . الم احذرك من قبل ؟

ـــ بلى . وماذا افعل ؟ ؟ المغص يقتلني !

ـــ هل تتقن العبرية ؟

ـــ لا . . .

ـــ مصيبة يا صديقي ، سندخل المدينة بلسان يحمل التهمة والعقوبة .

ـــ هل تعنين ان اللغة هي الزنزان ؟

ـــ ربما . لا ترتبك ولا ترتعش كالاطفال السذج ! هاك يدي . انتصب . ارفع رأسك في الشارع . هذه المدينة لك . هل تتقن استعمال السلاح ؟ !

ـــ جدي قاتل في سمخ عام العشرين . وابي استشهد في عرابه واخي في عمان ، وانا وارثهم بجدارة .

يلطم رأسه بكلتا يديه . « الصداع » . يركض فيرتطم رأسه بالجدار يصرخ :

ـــ اين نحن الان ؟

ـــ في الزنزانة . . كن رجلا !

يسح الدم على جبهته ، يبكي بمرارة وهو يشد القضبان :

ـــ انا ؟ انا اكون رجلا ؟ بسيطة ! عندما كانوا كالفئران غفرت بسذاجة . انا المسؤول !

اعرف انهم ينصبون لي الفخ . اعرف البسمة المقصلة . والوعد الجريمة ، والموافقة اللغم ؟

لقد وقعت . انا الذي بنى فوق الريح مدينة ، ونبش التراب عن نهر ضائع فعاد قويا دفاقا .

انا اكون رجلا ؟ ! وماذا اكون غير ذلك ؟ !

ـــ لا تضيع الوقت في الالم ! لقد تألمنا ما فيه الكفاية .

رفع رأسه . كانت الحشرجات الصغيرة عالقة في الصدر . لكنه كتم انة حزينة مرت كسحابة ، وهي تتعلق به كظله ، تسأله :

ـــ سمعت انك عدت من القطاع . ما هي الاخبار ؟

ـــ انا في القطاع

ـــ والخليل ؟

ـــ فيها اسرتي !

ـــ اوة يا الهي ، قالوا انك خليلي . هل انت من نابلس اذن ؟!

ـــ بالتأكيد ! !

ـــ في اي حارة ؟

ـــ لست من نابلس . فيها زوجتي :
ـــ اذن عرفت . انت من الجليل ؟
ـــ هناك حبيبتي .
ـــ لماذا تصر على تعذيبي ؟
ـــ ابدا وعنب الخليل !
ـــ ولا مـــن بيسان .
ـــ من الناصرة ؟
ـــ مدينة المسيح المصلوب لا تستوعب مسيحا اخر !

كيف تضيع عن بالي ! من حيفا ! من الساحل ! من غزة ؟ لماذا لا ترد ؟ اوه ... انت ساحلي .

ـــ اسمعي . لا تتعبي نفسك في الاسئلة .
لقد قبلتك ككل وقبلتني كذلك . يكفي هذا .
ـــ هل تقسم ؟
ـــ اقسم بغزة
ـــ انت غزواي
ـــ اوه مرة اخرى الى ذات الاسئلة !

تحسس جيبه . اشعل سيجارة وهو يجتاز الميدان العام . لم ينتبه الى التحذير الذي القاه الشرطي ، عندما اخترق الشارع . صرخت بغضب :

ـــ للمرة الرابعة بذات الفخ ؟ انت لم تستفد من التجربـــة . لم تتعلم . ودون ذلك ، ستظل في المستنقع الموبوء تقتل نفسك ، وتقتلني الى جوارك . لقد وعدتك ان تظل علاقتنا ابدية تسري كنهر الميكونغ ، ولن يكون الطلاق مهما حدث . هل تسمعني ؟

ـــ نعم .. اسمع ... تابعي .

ـــ وحتى نستمر في الرحلة . سنغير كل شيء ونستفيد من كل شيء مضى . الهدف من الرحلة ، البرنامج ، الوسيلة ، الناس ، كل ذلك ، وبدونه سيحزون عنقك وعنقي مجددا ، في الاسطبل كما هو في الشارع العام ، في السرداب كما هو في الحي السكني .

ـــ طيب .
ـــ هل نتفق ؟
ـــ هاتي يدك .. لنتصافح !

شد على يدها بقوة ، كانت تتأوه بصوت رقيق ، لولا نظرات المارة الذين ازدحم بهم الشارع .

ـ هل اشتريه لك ؟

ـ دعه في الفترينة للعرض !

ـ سنظل في المنفى .

ـ لا اقول حتى تقوم (ناقة) صالح ، فهي لن تقوم ابـداً ، ولكن عندما نهجر هذه المدينة الغريبة علينا ونبحث عن مدن لنا ، نترك الغُربة والنفي .

ـ هل اشتري لك ذلك الخاتم ؟

ـ لا

ـ به رصاصة !

ـ اذن ادخل لنتفرج عليه !

دخلا . كانت القاعة تغص بالبشر . الخطيب اعتلى المنصـة وهو يغلي ويدق الطاولة ، ويندفع الى الامام ثم الى الخلف ، ويصرخ بقوة ، ثم يتلو بعض القرارات . صفقوا . وابتلعتهم سيول البشر وهم يهتفون في المظاهرة :

ـ لماذا لا تهتف ؟

ـ انني افكر بشعارات جديدة ؟

ـ اوه لا تستعجل الامور ، فلكل مرحلة شعاراتها .

تمتم ببضع كلمات غير مفهومة ، ثم زم شفتيه استهزاء ، وهو يقطع رصيف الشارع المهجور ثم يقول بغضب :

ـ التنفيذ وحده لا يكفي . الفروع يجب ان تصب في الاصل ، والاصل يحتاج الى قيادة ، والقيادة دون حزب كزبد الصابون ، و..

ـ كفى ، لا تزيد ، ما مبرر هذا الكلام ؟

ـ اتعجبك طريقة تنفيذ الاضراب ؟

ـ دائما هذه طريقتك . الكل او فلا . هذا لا يجدي ، ستتعلم من التجربة ، انا اثق بتطورك ثقتي بشروق شمس الغد الصيفية .

قطعا الرصيف ، الشارع ، القرية ، المدينة . هو حيث يعود الى القاعدة غير المعروفة . وهي حيث تلازم الانتظار . قالت :

ــ سأنتظرك

ــ ربما اتأخر فلا تيأسي !

ــ سأنتظرك لانني انتظر النصر

تعانقا . وكان الناس ينتظرون استقبال اليوم الاخر .

عـــدن / ١٩٧٢

نشرت في مجلة الهدف ــ العدد ١٥٦ ــ السبت ١٧ حزيران ١٩٧٢

استبدال ملابسه وقتل



حدق فيه ، ودار شريط سريع من الماضي امامه ، ثم تطلع نحو زوجته وسألها :

ــ اليس هو الـ .... ؟

فأجابت همسا وهي تتظاهر بالتطلع الى الجدران :

ــ انه هو !

فصرخ الضابط (مريود) عليهما :

ــ ماذا تقولان ؟ آه .. افهم .. تتآمران على السلاح ! اين السلاح ؟ انت يا حرمة واشار الى الزوجة ثم اردف :

ــ اين حفرتم للاسلحة ؟ هيا دليني عليها

تطلعت المرأة بمزيج من الخوف والاستنكار وبسطت يديها وهي تولول :

ــ يا حسرتي هو احنا بنعرف نستعمل السلاح ! ! يا ريت يا ابني ! الله يسمع منك .

استشاط الضابط غضبا وصرخ بها

ــ ايش بتقولي يا حرمة ؟ اذن انت فدائية .

ــ وماله الفدائي ؟

كاد يستعمل سلاحه ويقتلها ، ولكنه تردد في اللحظة الاخيرة ، وثبت بصره على الرجل الواجم كالمأخوذ ، ودار بعيونه على (غزاله) المختبئة خلف امها . ووقف خلفه ثلاثة جنود يستخدمون لاطلاق النار . ركز بصره مرة اخرى على الرجل وصرخ به :

ــ انت بماذا تفكر ؟ ؟ لا تضيع وقتي . اعطني الاسلحة والا قتلتكم .

فهمس الرجل وهو لا زال شارد البال

ـــ طيب !

ولكنه في الحقيقة لم يكن لينتبه الى معنى رده هذا . فقد غرق في الماضي ، عندما تجمعت العائلة حوله واخذت تسأل عن المصير . كانت المدينة قد سقطت تحت الاحتلال كما سقطت كل الضفة . وكان ما لديه عشرة دنانير وفرها من مصاريف البيت ووضعت كاحتياط للمرض او لقدوم ضيف مفاجىء . وبينما كانوا يفكرون كعائلة فـــي كيفية توفير المصروف اذا استمرت الحالة على ما هي عليه ، دق رجل الباب واندفع وهو يطلب الحماية قائلا :

ـــ طنيب على ولايك يا عمي !! ببوس رجلك ! ! خبينـــــي عندك ! !

ـــ وصلت يا ابني ، باطل ! ايش مالك !

فحكى له قصة هربه ، وكيفية اغرائه للراعي الذي استبـــدل معه ملابسه العسكرية « ولعله المسكين مات الان » ، ثم عن عدم معرفته للطريق والبلد فهو مضطر لان يقيم « يختبىء » حتى يؤمـــن عملية الرحيل الى الضفة الشرقية . فقام الرجل بشهامة ورجولـــة الفلاح واعطاه « القمباز » الجديد اليتيم الذي يملكه « للطلعة » ، وتعشى ليلتها ملوخية !

ـــ الامر لله !

كانت اول جملة بدأ الرجل بها حديثه عندما جلس « المقـــدم الهارب » واردفت زوجته وهي بركن الغرفة .

ـــ كتبه سودا ! !

بينما كان الابن الوحيد ، « عباس » يخط على ورق مقوى بيتا من الشعر ويقضي الوقت في اعادة كتابته « ارانب ان تعرض اجنبي . وهم دوما على قومي اسود » . ثم يتطلع نحو المقــــدم (مريود) ويقول ساخرا :

ـــ ماذا فعلت يا بطل ؟

ـــ هل تريدني ان اموت لوحدي ؟

ـــ ولماذا لوحدك ؟

ـــ لان الجميع هرب وانا هربت !

ـــ عال والله عال . . ارانب !

عندها احس الوالد ان ضيفه اهين ، فصرخ على ابنه :

ــ اسكت يا ولد ! احترم لسانك والراجل في البيت ! يد واحدة لا تصفق ! .

فتمتم عباس وهو يتطلع الى الورقة :

ــ ليش هو في ايد واحدة حاولت تصفق ؟ ! !

ــ وبعدين يا ولد ؟

ــ ايش يعني . اللي بحكي الحق بتنخزق طاقيته ؟ ! ايش اسم الاخ ؟

ــ مريود .

ــ آه مريود . اسمع يا مريود . بشرفك حاربت ؟

ــ لأ .

ــ ليش ؟

ــ فجأة كل الدنيا تغيرت . مافيش ولا ضابط ولا تموين ولا اتصال ولا ذخائر ! ! وكل واحد هرب بجلده .. هذي يا سيدي كل الطبخة !

ــ يا ترى الطباخ مين ؟ !

تدخلت الام ، ولم تحتمل احراج الضيف فقالت لابنها :

ــ اسكت يما الله يرضى عليك . يكفي الخازوق اللي أكلناه. وعايز تزيد الطين بله ! المهم شوف انت وابوك اشتروا للزلمة اواعي خليه لما تهدأ الحال يروح على بلاده مستور الحال ! ! فأحس مريود بالاحراج وقال :

ــ يا جماعة انا مش عارف كيف اشكركم ! خليتوني احس اني واحد منكم ! الله يقدرني على معروفكم .

ــ ايش عاملين يا ابني ؟ ما انت شايف ، الرغيف بنتقاسمه معك وبنعيش ! ما حد بوكل قسمة حد ! واخرتها قطنة !

وانهمكا بحديث جانبي ، بينما كان عباس ما يزال يحاول مع شقيقته (غزالة) حتى تحفظ بيت الشعر ، ويتعمد رفع صوته عندما ينطق كلمة « ارانب » ثم يتطلع الى مريود بخبث وابتسامة ساخرة .

صرخ الضابط (مريود) :

ــ انت بماذا تفكر ايها الرجل ؟ كدت تخرجني عن صوابي اني اسألك .

ـــ ما اسمك يا ولدي ؟

ـــ ولماذا تريد اسمي ؟ حتى تسلمه لاسرائيل ! اعرف انكم جواسيس ! ! ابتسم الرجل بسخرية وقال :

ـــ الله يسامحك . . . ! احنا جواسيس ! ! ؟

ـــ اسمعوا يا جنود ! فتشوا الفراش !

تدافع الجنود نحو الفراش والقوه في الارض ، واخذوا يبقرونه براس الحربة (السنجه) بحثا عن الاسلحة ! والضابط لا يكف عن الحملقة في اركان الغرفة ويحدق بـ « غزالة » التي تجمدت وراء امها . ولاحت منه التفاتة الى صورة معلقة على الحائط ، فقال للرجل :

ـــ لمن هذه الصورة ؟

ـــ صورة ابني عباس ! !

ـــ اين هو ؟

ـــ استشهد مع الفدائيين

فحملق الضابط في الصورة مجددا ، وصرخ

ـــ عرفته ! لكن اين شاهدته ؟ !

فقال الرجل ببرود :

ـــ في نابلس !

تطلع نحوه باستغراب وقال :

ـــ كيف عرفت ؟

كان الجنود قد انهوا تمزيق الفراش ، فبدأوا بحفر ارض الغرفة مما تسبب بكسر غالبية الاواني ، وهجم احدهم على يد « غزالة » وانتزع (اسورة) ذهبية كانت قد اشترتها من (تحويشة) مصروفها لمدة ست سنوات .

ـــ اتعدني بشرفك الا تقتلني ؟

ـــ اعدك !

ـــ سأذكر لك بيتا من الشعر وبعدها تعرف انت .

وحكى بيت « الارانب » فجفل مريود ! وعرف الرجل وعباس والام وغزالة . لكنه حاول ان يتظاهر باللامبالاة والغباء وعدم الفهم ، حتى لا يفرض عليه موضوع المعرفة القديمة بعض الالتزامات

الادبية الان . فصرخ بالرجل :
ــ ماذا تقصد ببيت الشعر ؟ هل نحن ارانب ؟
نتدخل جندي كان قد بقر (مخدة) وقال :
ــ ان سيدي الرائد مريود نال وسام البطولة لصموده في الضفة ! اننا نفتخر به ! ثم رفع يده الى مقدمة جبهته وانزلها وهو يتمتم « سيدي » .
حملق الرجل بمريود وقال لنفسه :
ــ وسام بطولة ؟ ! ؟ مريود يأخذ وسام بطولة ! ابوك يا زمن ! ! وتبدلت غزلانها بقرود ! !
كانت الزوجة وغزالة تتهامسان . ثم قالت الام بصوت مسموع وبطيبة ساذجة :
ــ ولو يا مريود ! ولك عامل نفسك مش عارفنا ؟ ! ؟
احس كمن وخزه في جنبه ، ثم ازداد حزنا وهو يرد :
ــ ما هذا السؤال غير المهذب ؟ يا قليلة الادب ! !
ــ انا قليلة الادب يا خاين العيش والملح ؟ !
ــ انت وحده شر ... وحياة صاحب الجلالة لازم تتأدبي ! !
ولم تدر كيف فلت لسانها وهي ترد عليه بعنف وتلقائية :
ــ يلعن ابوك على ابو صاحب الجلالة ! كلكم اعرص من بعض ! !
احد الجنود الذين تعلموا ان الملك ظل الله على الارض ، احس ان المراة تكفر وتخالف الدين عندما تلعن الملك ! هكذا علموه . ضغط على الزناد ، وافرغ بندقيته في الام وغزالة ، ثم تطلع الى مريود الذي احس ببعض الضيق وهتف
ــ سيدي !
قطب مريود جبينه وصرخ
ــ اي معروف ؟ انتم تصرون على انكم اديتم لي معروفا ! اي معروف ؟ !
رفع الرجل يديه المتلئتين بالدم ، وكان فكره يعمل بسرعة ، « لا بد من قتله » . واستعرض كل ادوات البيت « لا شيء يستعمل كسلاح .. المهم » . تطلع نحو جندي ركن بندقيته على الحائط ، وبينما كان الضابط يهمس لجندي من جنوده كانت البندقية

بيد الرجل جاهزة للاطلاق . ذعر احد الجنود الذي شاهد حركة الرجل وصرخ

ـــ انتباه !

تطلع الجميع ـــ كان الرجل قد افرغ رصاصتين ، كل واحدة بجندي وبقي مريود والجندي الذي يهمس له . قال الرجل :

ـــ الان يا مريود نتقابل . هناك اديت واجبي نحوك كجندي هارب . والان سؤادي واجبي بشكل كامل .

ـــ لنتفق على حل

ـــ اي حل ؟

ـــ ان تترك السلاح واعدك الا اقتلك !

ـــ انت يا ارنب !

سحب الجندي الاقسام ، فاطلق الرجل الرصاصة الثالثة . وظل مريود مشدوها ومرتبكا .

ـــ هل عرفتني يا مريود ؟ !

ـــ نعم

ـــ اذن خذ !

ضغط على الزناد ، لكن الرصاصة لم تنطلق . صعق وهــو يتطلع الى البندقية ويجدها فارغة فاندفع نحو مريود الذي اطلق النار عليه واصابه بكتفه ، ورفع البندقية الفارغة من مقدمتها وهوى بها على راسه قبل ان يسقط . سقط هو . وسقط مريود . وسقطت البندقية .

اطلاق النار ما زال مستمراً في الخارج ، عندما خرج الرجل الى الشارع والدم يسح منه وبهستيريا يصرخ :

ـــ اين مريود ؟ اين مريود ؟ ! سأظل خلفك يا مريود ! وعندما هم ان يدخل احد الازقة كانت اخر كلمة قالها قبل ان يختفي

ـــ سأقتلك يا مريود . . . سأقتلك .

عـــــدن / ١٩٧١

نشرت في مجلة « الهدف » العدد ١٣٨ ــ السبت ١٢ شباط ١٩٧٢ .

الجراد





— ١ —

انتشر الجراد في كل مكان ، ولم تنج منه حارات الاطفال وغرف البيوت الداخلية ومراكز الشرطة . امس إعتقل عشرة فلاحين رفعوا عريضة طالبوا فيها بحرية الدفاع عن النفس . فقد اكل الجراد مزارعهم وحيطان بيوتهم ومؤونة المستقبل . القرية كلها تتناقل الخبر وتذيعه في السهرات والبيادر الخاوية ، وعندما يشيعون جنازة راحلة او يحتفلون بعرس حزين .

في الجهة الشرقية للقرية حيث تكدست اسراب الجراد المهاجمة على الطرق ، ومداخل المنازل . الناس يموتون باذن من « القصر » ويتنفسون ببطاقات التموين ، ويرغمون على الانتماء لعضوية « المكتب السياسي للصمت » الذي انشأه صاحب العظمة عقب الغزو .

بدأ التمرد في اكثر المنازل فقرا . كانت اشاعة سرعان ما اصبحت حقيقة ، فتشكلت لجان ومنظمات مكافحة الجراد التي اصدر القصر امرا بمعاقبة المنتمين اليها بالموت رميا بالرصاص . فالمنطقة الشرقية اذا منطقة رعب وصدام ؛ والكل يغزوهم الجراد الذي يسبق الصوت ، ويمشي بالمجنزرات والكاسحات .

الليلة تزحف على المنازل ببطء وتلهث عند كل مفترق طرق . صوت نباح كلب يرتفع ، يبتعد ، يقترب ، يذوي ، يموت ثم يرتفع . وقطة جرباء اختبأت تحت حائط منهار وراحت تبحث عبثا عن البقايا، اي بقايا ، فلم تتركها بندقية الخفير الليلي تمضي بقية الوقت بسلام. فاطلق عليها ست رصاصات متقطعة ولم يصدر انين منها او بكاء .

وبينما كان يجري خائفا ويهذي « لقد قتلته ، انا القاتل يا حكومة ! » كانت القطة تلفظ انفاسها الاخيرة . اما صرصار الليل فلا وجود له بعد ان عم الرعب والخراب كل شبر من الحي .

في الشارع المؤدي الى المسجد الكبير في القرية ، تكوم رماد كتب محروقة ، وأربعة عشر قتيلا تم ذبحهم بسكاكين مصداة ، استعملت بالمقلوب لكنها قتلت . والدورية تحرس الجثث والرماد ، وتنشد نشيدا حماسيا وهي تفتش المارة ، وتملك حق اضافة من تشاء الى الجثث الملقاة على الارض . امرأة وحيدة تجاسرت على الخروج في هذه الساعة ، وراحت تصرخ باتجاه الدورية ، وتسأل عن ولدها . كان صوتها اقوى من البكاء لكنه مبحوح ومخنوق ، جز احدهم شعر رأسها ، بينما تطوع ثان لبقر البطن . ماتت عند الجثث ، وخلا الشارع تماما الا من النشيد الذي تحول الى عربدة قبلية فاستعملت فيه « التراويد » ! !

عند النادي ، مكان تجمع الشباب في القرية اقيمت مشنقة حديثة يعلق عليها كل من ينام اكثر من اربع ساعات في اليوم ، وكل امي وكل جاهل باستخدام الاسلحة ، وكل ازعر .

استرجع كل هذه الاماكن التي يعرفها منذ اكثر من عشرين سنة عندما ولد على ظهر عربة مهاجرة . انه يسترجع الان وجه قائد العربة التاتم الذي رفض مساعدة أمه في تجاوز « النفاس » ثم ارتهن ساعة ابيه ، ومن يومها والاسرة لا تعرف الزمن . لكنه يذكر جيدا ان العربة تدهورت فمات القائد والوالد وعاش يتيما .

— آه . . آخ . . زمن ! يركب قطار التقدم فيه وجهاء التخلف تفوه ! !

ما كادت البصقة تستقر على الارض ، حتى قفزت الى النوافذ المغلقة والاجساد الطويلة النائمة . وتخيل انها تتحول الى مناشير ملصقة على الجدران الترابية والمبلطة . اوراق بحجم راحة اليد ، بيضاء ، وفي المنتصف وبالخط الاحمر ، كلمة كبيرة ، تفوه !

قهقه عندما وصل الى هذه النقطة في شروده فمرت طلقة سريعة بالقرب من اذنيه . جفل وهو يتحسس كل رأسه ، ويلهث عندما اخذ الارض تلقائيا . وسرعان ما عاود السيطرة على نفسه واخذ يصوب البندقية باتجاه مركز الاطلاق .

دقائق قليلة حسبها العمر كله وهو يزحف بملاصقة الحيطان .
كان الجراد يرتطم بالجدران ويتساقط فاغرا فاه ، يبتلع كل شيء . انه جراد خاص بهذه المنطقة . تساقط عدد من الجراد على رأسه والتصق به كأخطبوط ، فاخذ يصر على اسنانه بقوة محـــاولا الا يحدث جلبة او ضجيجا ، حتى لا ينكشف ويصبح هدف « تنشين » ! سالت الدموع بعد استنفذ كل صبره! ، وكلت يده عن طرد الاسراب غير المنقطعة على رأسه بدأ يزحف زحفة « الفهد » والرصاص مـا زال ساهرا دون نوم . وبينما هو يوالي الزحف . كانت الاصـوات تصله من بعيد ، خافتة ثم تعلو ، فتتضح :

ـــ بلغوا اخوانكم ، انها الطريقة الوحيدة المجدية ، احرقوا فراشكم على اسطح المنازل ، احرقوا كل شيء . لا بأس وسننـام على الارض . انها الطريقة الوحيدة التي يهرب فيها الجراد .

تجسس « سترته » ، نزعها ، ومد يده الى عود الثقـاب واشعل طرفها بعد أن افرغ « القداحة » من « الكاز » ودس القطن في جيبة السترة ثم اتكأ على كوعه المدمى واخذ يبتعد تدريجيا عـن النار ! تطلع حوله ، اسطح المنازل تحولت الى مواقد للنار ، واينما تطلعت يصادفك اللهب الذي انكسرت اضواؤه على الحيطان المصابة والافواه المتصلبة على النوافذ . وكانت « الزغاريد » و « الله اكبر » و « المجد للرجال » تتسلل من وراء النيران المرتفعة ، الى الاذان الساهرة ، جميلة طرية ، منعشة وتوقظ الحماس ! !

ـ ٢ ـ

من نافذة صغيرة متهدمة في منزل « اللبن » الذي يعيش فيه ، كان يرسل نظراته الى شارع الاسفلت المجاور . ضايقته اطـراف الستارة الملقاة دون نظام ، فنزعها ، والقى بها غاضبا في الركـن وهو يتمتم « هذه ليست حياة ! هذه زريبة نحشر انفسنا بها قسرا اللعنة على هذا العالم » .

عقد حاجبيه ، وحدق في الشارع ، ثم دق قبضة يده علـى الحائط . . . « دنيا اخر زمن » ! رجل طويل القامة ، يرتدي بـزة عسكرية انيقة ، يمشي على رأسه ، داخل حذاء كبير ، وخلفـه مظاهرة صاخبة تهتف « يسقط الجراد ، والموت للجراد ، والعار للجراد » ! !

. بصق على الحائط ثم سرعان ما احضر الستارة ومسحها بها . وبحث تحت « المطوى » عن علبة سجائره اللف ، وراح يقطع الوقت في تصنيع سيجارة اسطوانية . انتبهت زوجته الى قلقة حزنه وغضبه ، فقالت وهي ما تزال ممددة على « الفرشة » الارضية :

— ابو ياسر . ! مالك ؟

— لا . . لا شيء .

— ماذا يحدث في الخارج ؟ ؟

ابتسم وقال وهو ما زال ينظر من النافذة :

— رجل يمشي على رأسه داخل حذاء وخلفه مظاهرة تأييد ! !

تطلعت نحوه باستنكار ، واحست بلسعة في جانبها الايسر تشبه الوخز وتمتمت : « انه يضحك علي ، ويسخر مني ، انا اعرف انني لست مثقفة ، لكنه تزوجني وكفى » . ورغم انفها ، هاجمها كابوس من التصورات المزعجة عن « احتقاره » لها ، ثم جمعت ما تبقى من شجاعة .

— انت لا تحترمني

تطلع نحوها باستغراب :

— ما داعي هذا الكلام ؟

— انا اعرف انني غير مثقفة ، وانت دائما تتحدث عن الزوجات المثقفات والحياة السعيدة .

— يا امرأة ماذا حدث لك ؟ ؟

— آخ منكم يا رجال ؟ ! ثم تتظاهر بالغباء ! يما ! يما !

— اوه الله اكبر ، وبعدين ؟ تعالي . . تعالي شوفي .

— لا .

بقيت ممددة على الارض ، تفكر ، امس ليلا حدثها عن الحريق فوق اسطح المنازل ، وصدقته ، لانها حرقت « الفرشة » الثانية التي يمتلكونها كاحتياط . و « اليوم » . مسحت شعرها ثم تطلعت الى صدرها واردفت « اولاد الحرام اخذوا كل شيء » . وراعها ان تتشبث اعينها على الفستان ، حتى الفساتين ، مزقها ذلك الجندي الأعور » . تقلبت على جانبها الايمن ، فوقع بصرها على الزوج الذي ما زال مسمرا على النافذة ، والاربطة البيضاء تحيط بساعد يده الايمن :

ـــ ابو ياسر .. تعال استريح ! !
ـــ اسكتي
ـــ بحياة ابوك تعال !
ـــ يا شيخة اسكتي
ـــ او ، خلي القيامة تقوم !
ـــ ما احنا فيها .
اخذ يضحك بصوت مرتفع ، ويقول :
ـــ الصف الاول من المظاهرة يقلد القائد . انهم يمشون على رؤوسهم داخل احذية . ان منظرهم يثير القرف والعطف والخوف . ارجلهم الى اعلى . انها مزروعة كعيدان القصب . تعالي تعالي شوفي .
ـــ بحياة ابوك تسكت !
ـــ الله كل المظاهرة تمشي على رؤوسها . الناس يفكرون داخل احذية وارجلهم الى اعلى . كل رجل برأسين بقدمين عاريتين . ارجوك تعالي .
ـــ لا
بدأت تتشاغل بتفكيرات نسائية خاصة ، في المتعة التي تأخذها زوجة متفرغة في البيت كل العمر . لكنه استمر على النافذة يدخن بارتياح وخوف . فاحست الزوجة بالملل ، فنهضت بتثاقل ، بينما كان يحاول ترك النافذة وقالت :
ـــ لا حول ولا ... سأرى المظاهرة .
تطلع نحوها باشفاق وابتسم
ـــ لقد اختفت .. ارجعي .

ـ ٣ ـ

حول طاولة مستديرة ، كان اجتماع المكتب السياسي للصمت ، في الحي الغربي . خارج القصر امتلأت الساحات بالجنود والدبابات والمباحث وفوق الطاولة عشرات الزجاجات الملونة والمأكولات ونسخة واحدة مطبوعة لكل جالس . في مقدمة الطاولة ، جلس رئيس المكتب الذي يشبه الفقمة ، وبدأ يقرأ من النسخة المطبوعة :

ـ بعد الانتصار الساحق على الجراد ، سنتوجه لاحتـــلال المستنقعات المليئة بالاسماك . ولكن أمامنا مهمة عاجلة ، لا بد من القاء القبض على ابي ياسر وتجريده من السلاح !

قاطعه احدهم قائلا :

متى انتصرنا على الجراد ! !

نهض شخص وقاده من اذنه ثم سلمه للحرس وتمتم :

ـ هذا الحيوان يعارض ! لا داعي للاسئلة ، متى وكيف واين . المهم اننا انتصرنا ، هذه خطوة وتململ رجل عجوز وهتف :

ـ على من ؟ !

فساقه الرجل كما ساق زميله وسلمه الى الحرس وعــــاد يزمجر :

ـ يا اولاد الكلب ! لا داعي للاسئلة . انتم جواسيس ! خونة! لماذا تسألون ؟ الا تثقون بالسلطان ؟ !

قبل ان يكمل جملته ، تنحنح شاب صغير وطلب الاذن بالخروج وما تبقى كانوا يرفعون ايديهم شارة الموافقة طول الوقت .

السلطان ما زال على رأس « المنصة » ! قرأ الفقرة الثانية من النسخة المطبوعة واستأذن المجلس ليذهب الى « المرحاض » ! وخلال غيبته وبينما كان الرجل العنتري ما يزال واقفا ، ومتحفزا لمسك اي اذن وتسليم صاحبها الى الحرس . كان الجميع قــــد ناموا ! ولم يعد السلطان ! ولكن الجيش تلقى امرا بالتحرك لالقاء القبض علـــى ابي ياسر !!

ـ ٤ ـ

آثار تأكل الحيطان ، الزرع ، الرؤوس ، ما زالت تتـــرك بصماتها على الشوارع ، الاحياء ، والمنازل . رجل يسير ونصــف رأسه مفتوح للهواء ! لقد أكله الجراد ! دوريات عسكرية تجــوب الشوارع . وثلاثة أرباع الفتيان أحاطت بهم الأربطة ، وطوقــت سيقانهم . وعلى الرصيف مئات من رجال المباحث . قال فـــلاح فقير لزميله :

ـ يقولون ان الجراد سيعود

ـ وهل تغلبنا على آثاره حتى يعود ؟ ! انه موجود
ـــ آه ماذا نفعل ؟ !

ـــ لا تتحدث انه ينظر نحونا ، ذلك المباحثي الحقير !

ترك الرجل المباحثي الرصيف وتوجه نحوهما ، بينما كان ابو ياسر يسير وسط مجموعة مسلحة من الرجال في منتصف الشارع العام . علق رجل يبيع الخضار على عربة صغيرة متنقلة :

ـــ سيعتقلهم هذا الزنديق !

التفت نحوه شاب كان يختار رطلا من « البامية »

ـــ من سيعتقلهم ؟ ! هذا الازعر ! !

المدينة الراكدة على السطح تتحرك بشكل كثيف في الاسفل . كل الحركات الخارجية تحمل بركانا في الداخل . حتى مؤذن المسجد خرج عن صمته ، وهو في دكان الاوعية القديمة

ـــ الله يستر ! يقولون ان الجراد سيعود ! ونحن نأكـــل انفسنا ! !

ـــ وبعدين ؟

ـــ سنتركها لله !

صفارات الانذار ، لا تصل الى كل منزل ، والحيطة لا يعرفها كل الناس ولا يقدرون عليها . البعض زرعوا انفسهم في الشوارع وعلى اسطح المنازل ، والبعض الاخر نام في الملاجىء عند الظهـــر ، وعربات تمشي . والجراد يهاجم المنطقة بالملايين .

ـــ لقد بدأ القتال . . اهربوا ! !

قالها شاب اعزل كان يسابق قدميه ، فبدأ الضجيج بالازقة ، وتحت الارض وفوق (مسطبات) الغرف الصغيرة . خرج الـــى الميادين والشوارع الرئيسية مئات وآلاف الرجال . بعضهم استشهدوا والبعض مات ، وصوت يقتحم المدينة ، يتضخم ، يكبر :

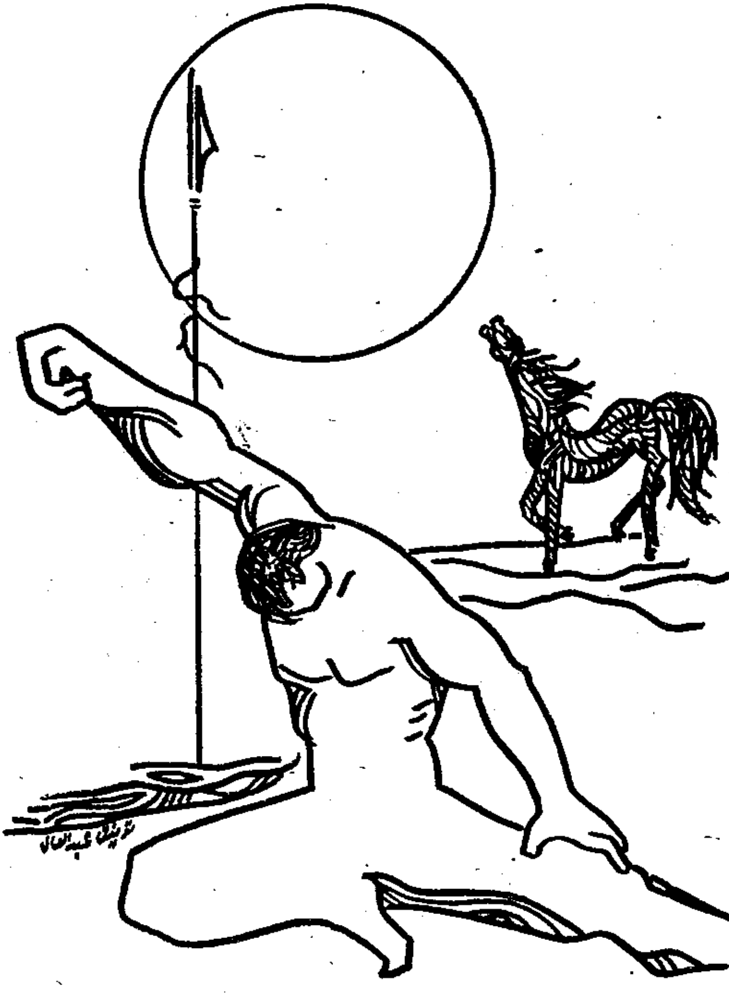
ـــ انتبهوا ايها الناس . . ان للجراد انصار في الداخل ، لقد توحدت صفوفهم دافعوا عن المدينة واتحدوا !

وما كاد الصوت يلتصق على الجدران ويدخل المنازل، ويرسخ داخل الكثير من الجماجم المنتصبة ، حتى حفرت المدينة لنفسهـــا خندقين ، فتح احدهما للجراد مزارعه وأبواب المنازل ، ومـــا زال ابو ياسر يردد نفس النداء في حي اخر ! !

عـــــدن / ١٩٧٠

نشرت في مجلة الهدف العدد ١٠٨ — ١٠ تموز ١٩٧١ .

الصفقة



ــ ها هو قادم !

اشار عليه ، ولكز زميله الذي يشاطره المسكن والعمـــل . سحب نفسا من سيجارته الـ « كمال » . وهمهم ببضع عبارات غير مفهومة . بادره زميله :

ــ نتحرك اذن !

ــ اوه . كم قلت لك ان التسرع لا يفيد ... اضبط اعصابك .

كان الشارع مفرغا الا منه . رجل عملاق الجثة ، وجهه قروي التقاطيع . وفي عينيه اصرار عمال المصانع . كان يحمل شيئا على كتفيه العريضين . انه يتنفس بارتياح . ويبتسم لكل من يصادفه ثم يصر على المصافحة . لعله لم يتبين (المخبر) امام المركز الذي يبذل جهدا في ان يتجاهله ، لانه لا يذكره الا بالكرباج والسجن وقتل طفلته الاولى . ابوه كان سائق قطار قتل عام ٣٦ . امه التي لا تعرف من الدنيا سوى الناصرة وحاكورة العنب قتلت عام ٤٨ . تاريخه شريط ملطخ بالدم . و « ياسين » رفيق صباه ، وابن عمه ، واقرب الناس اليه ، استشهد هو الاخر في غزة عام ٥٦ .

يحاول ان يتطلع الى الشارع المفرغ الا منه . فتصطدم عيناه بحيطان مصداة وبقايا جرائد متطايرة . وبصمت يصل الى المــوت والخمول كانت الظهيرة تزحف بتكاسل على الحي ، وهو ما زال ملتصقا بما يحمل على كتفه . اشعل سيجارة وتذكـــر الشاويش « ابو النور » الذي يعمل مخبرا بعد ان باع ابنته لشيخ صاحـــب طريقة صوفية . سعل وبصق . ود لو تتحول الارض الى وجه ابي النور ! حذاءه (البوت) يرتفع ثم يهبط على الارض دون جلبة ، كل الحيطان تنظر اليه واسطح المنازل

ــ او . . . ه . . . ه

مد يده الى رأسه ثم اردف

ــ كيف اسمح لهذا الخنزير ان يكون جارا لي ؟ !

اما هو او انا . احدنا يجب ان يختار الحياة ! !

يبتسم ويأخذ نفسا من السيجارة ثم يتابع :

ــ ويجب ان اختارها انا !

مرت امرأة على رأسها « سطل » ماء وبيدها طفل صغير حمل كارلوا خشبيا . كان الطفل ينشد بكلمات تضيع داخل حلقه . يبتلعها وبصعوبة يقذف بعضها الخارج . لكن صوته برغم لسانه « الالثغ » ارتفع عندما مر « العملاق » من امامه وتمتمت امه

ــ الله ينصركم !

داس عقب السيجارة وهمس لنفسه :

ــ ان وجهها يشبه وجه زوجتي ! اي حجارة على صدرها الان ! مسكينة « ابتسام » ماتت وهي تبكي . هكذا قالوا لي . آه لو شاهدتها ولو للحظة ! لكن ما قيمة ذلك ؟ ! الناس يموتون عندنا دون تحية او ورقة ارث ، فما نملكه لا تحمله الوصايا !

زلت قدمه ، فوقع بحفرة صغيرة . سمع قهقهة تأتيه من الخلف كلدغ افعى . احس بامعائه تنكمش ثم تنبسط . تنفس صدره تضاعف ، مد يده بحركة تلقائية الى ظهره ، فاختفى الصوت ! وانتبه لعجوز يتوكأ على عصاه ، وبيده ، مسبحته الابدية ، ويتجه الى الجامع وهو يقول :

ــ الحفرة الاولى لا تقتل يا ولدي . حاول ان تتبين موطىء قدمك قبل ان تضعها ! .

فقفز من الحفرة وهو ينفض التراب العالق على « بدلته » الخاكية التي يرتديها منذ نهاية الحرب ، وتطلع الى العجوز ، وبود وابتسام قال له :

ــ اشكرك يا عم ! من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة .

ــ ماذا تقصد ؟

ـ لا . مجرد كلام . الم تلاحظ صاحب الدكان الذي اختفى عندما تحسست كتفي .

ـ بلى

ـ عنده حق .

لم يفهم العجوز وتابع طريقه . قلب المسألة مجددا ، وجه زوجته والحفرة الاولى في شارع مفتوح .

ـ لقد ماتت . هذا شيء طبيعي ، كل الناس يموتون ، لكن الشمس لا تتوقف حتى اذا ولدنا داخل مشنقة . فعلى الاقل لنبصق بوجه الجلاد . لنقل لا . . اوه . . ما هذا الغثيان !! ان جلدي يفقس بيوضا لحمية . انني اشعر بالحكة ! لعله اتسخ اكثر مما يجب ! والمسكينة التي حضنها تراب القدس ! ما ذنبي انا في هذا الموضوع لقد اصرت ان ترى القدس كعاصمة لدولة تحلم بها ، فكانت الرؤية الاولى والاخيرة . مسكينة ماتت . استشهدت عندما سلمت القدس مفاتيحها وهرب الحارس . ليكن الطوفان ! ولماذا افكر بها الى هذا الحد ؟ ! لقد ماتت وكفى ! اوه ، الف لعنة على هذه الافكار لأنتبه الى الشارع فأخشى ان اقع بحفرة اخرى جديدة . الرجلان في مقدمة الشارع ما زالا يهمسان . قال الاول :

ـ لقد وقع ولم تبدأ بالمرحلة الثانية

ـ ولماذا لم تبدأ انت ؟

ـ دعنا من الخصام . لن نختلف هنا ، المهم ان توقفه بأي ثمن اذا لم يتوقف خسرنا الصفقة .

ـ حسنا سأتدبر الامر .

الاصوات في منتصف الشارع تداخلت اللهجات فيها وتمايز الزي . انتبه « العملاق » الى ضجيج يدور حوله ، يتسع يملأ الدنيا . يهاجم اذنيه بطنين قوي ، وهو يعرف ان حركة يده الى كتفه لم تعد تكفي . وليس هناك متسع من الوقت ليبحث عن دكان يشتري علبة « سجائر » . كل الحوانيت أغلقت أبوابها ، وتدافع المتسولون الى الشوارع الخلفية المظلمة ، وساحات الجوامع . وبجوار الدوار العام الذي سيخترقه في طريقه ، كانت الكتل الثنائية تتباحث قال حسنين :

ـ انني اعطف عليه . احببته بامانه . واحسست انه يمثلني بنبله وشرفه وكتفه . ولكن هذه التي يحملها على كتفه تعرقل خطواتي . . سأنزعها منه هذا هو المهم وانت ما رأيك ؟ ؟

فأجابه جعفر المومني ، الشاب الخريج من جامعة اكسفورد والذي يتباهى بشهادته اكثر مما يتباهى بتقدير المسؤولين له وثنائهم عليه :

ـ ما دمت تحمل بقايا صبر ، فدع المسألة لي .

وتطلعا الى شخص ثالث كان يقف صامتا طوال الوقت ، ويلقبونه بالبغدادي ، تجاوز الثلاثين وتقاطيع وجهه جافة خشنة ، وابتسامته تحدث تصدعا في وجهه الكروي الامرد وسرعان ما بدأت الكلمات تتكاثف في صدره وبعسر وصعوبة بالغين كان يولدهما على فمه بأدب مصطنع واعتزاز نرجسي كان يهذي لنفسه .

ـ الوقوف الى جانبه ام الحياد . . الحياد . . الحياد افضل ، مالي ومال الطبخة ! واذا نجح فسيتفوق علينا ونخسر كل شيء .

قال حسنين للمومني

ـ سنمنعه من الوصول الى نهاية الشارع

ـ لا . المهم الا يصل للمنزل الاخر . وحتى اذا استمر في المشي فان الخطة ستفشل لأن مجموعة الصفقة ستضطر لكشف نفسها ! وربما يطلق عليها النار هذا المتهور الاحمق ويجب ان نكسب حياد البغدادي .

ـ لنفترق . . انه قادم .

ما زال العملاق في الشارع يتذوق اطراف شفتيه ، ويعلق بقايا الريق الرطب في فمه . الحوانيت اقفلت . اطفال المدارس يهرولون بذعر . بدأت المدينة والحي والقرى في اختلاس الهواء ! الراديوهات الصغيرة « ترانزستور » فقدت من الاسواق .

قذيفة تنفجر وبضع عيارات نارية انطلقت بالقرب منه . تحسس كتفه وهمس :

ـ ما الذي يجري يحق الشيطان وللمرة الرابعة !! ؟
توقف . اتسعت حدقتا عيناه فتحسسهما بيده .

ـــ من الذي يضع الاسلاك الشائكة هناك !

قذيفة . قذائف تتساقط . طلقات تمتزج بروائح نتنة وبالجثث المحروقة . تذكر قهقهة المركز ونصيحة الرجل العجوز واللـــه ينصركم ! كل الماضي يتدافع الى ذهنه . زوجته . امه . ابـــوه . ابن عمه . طفلته التي ماتت قبل اسبوع على بوابة المدرسة .

حسنين والمومني يقهقهان ، ويتابعان حشو قذائف المدفعية . والشارع خال الا من العملاق الذي اصابته شظية في رجله اليمنى فاوقعته على الارض . انه يزحف باتجاه نهايـــة الشارع دون ان تتوقف ضحكاتهم وقذائف المدفعية . والحيطان تحولت الى رؤوس مدفونة كالبصل تحت الارض . واوراقها ترتفع الى الاعلى . وصوب الاوراق كانت قذائف المومني الذي صافح حسنين بعد قذيفة صائبة على حي مزدحم .

ـــ هل ننجح ؟

ـــ ربما . بدات اشك في نجاحنا . المهم لنحاول باقصى سرعة فاذا فشلنا فسيكون الدور لهم .

ـــ انه ينزف .

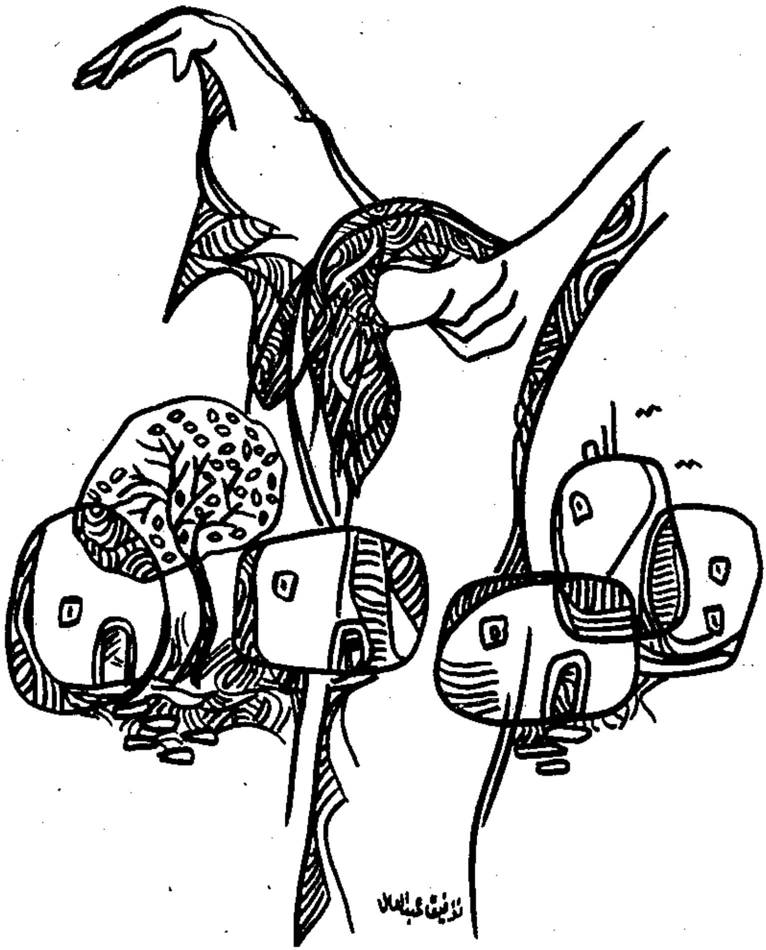
ـــ انهم يتكاثرون كالبعوض ، اقصف يا مومني .. اقصف .

عندما حل الظلام ، بدات لعبة جديدة . والصفقة ما زالت دون تنفيذ ، لان العملاق لم يستشهد بعد ، ولم يستسلم رغم الهدنـــة المفروضة عليه . اوراق البصل بدات تنمو باتجـــاه معاكس . الرؤوس الى اعلى والاوراق الى اسفل . تحت الارض وبـــين الرؤوس المنتصبة كان العملاق يبحث عن مخزن اخر لبندقيته فقـــد نفذ الرصاص .

عـــدن / ١٩٧١

نشرت في مجلة الجندي ــ العدد ٩١ ــ فبراير ٧٢ ــ عدن

المحطة



الهواء البارد يلفح وجهه وهو مدثر (بكبوته) الصوف ، ويحاول قدر جهده ان يقاوم الريح فيفتح حدقة عينه اليمنى ليتبين الطريق . الضباب يغطي المنطقة بكثافة ، وسيارته « الشحن » لا تتوقف عن الاهتزاز . فتحدث نغمة الفها منذ سنوات . وبشكل آلي يضع يده على المقود (الستيرنح) ويدخن بعصبية ، وكأنه يدمج كل همومه ومشاكله بالسيجارة التي يكاد يأكلها من الانفعال . ولم يلتفـــت للراكب الذي يجاوره ، فقد كان غارقا بحزنه الخاص ويجتر صـــور الاولاد والزوجة فيحبس دمعة تغالب السقوط . انه يكاد يحس الان رائحة الجثث على الارصفة وتحت الردم . ووجه ذلك الطفل الذي تهشمت ساقه وظل يركض ويركض الى موقع اخر ويصر علـــى اصطياد (عدوه) والصمود خلف جدار بقالة مغلقة منذ اسبوع . واناشيد ، قبل الموت تعلو وترتفع حتى يكاد لا يتبين صوت الراديو الذي يذيع الاخبار . فتهبط منه دمعة تتحجر على خده فيمحوهـــا بكم (كبوته) ويشعل سيجارة اخرى . تذكر ايام طفولته عندما كان يعمل اجيرا في احد افران المدينة ، وكيف ان رقبته كادت تنكسر من ثقل (طرحة) الخبز . ان وجهه آنذاك يشبه الى حد غريب ذلـــك الطفل الذي لم يتعبه حمل (الكلاشنكوف) . لقد ارضعه اهله لبن الحياد من مشاكل الحياة بمئات من الامثال والحكم وحملوه مسؤولية خرق قوانينهم واعرافهم . ومع ذلك فانه يتنفس بملء رئتيه الان ، لانه اختار على مسؤوليته ونجا بالسيارة الشحن فقط .

تطلع الى الراكب الذي بجواره وقال :

ـــ اتعرف هذا الذي امامك كم مهنة اشتغل ؟ !

اسمع !

اشتغلت حلاقا في قرية اردنية !

بعت « النواعم » و « الاسكيمو » في شوارع مدينة اربد ! ! عملت في الكسارات ومعامل الحلويات والنجارة والحدادة ! جربت العمل كميكانيكي لمدة سنة ثم يئست من التجربة .

عاصرت طوابير العمال وهي تبيع قوة عملها على الارصفة وبعت نفسي لاسبوع . مرضت على اثرها لمدة شهر فخسرت القديم والجديد .

وفي كل المرات كنت احس بفقد شيء ما ! !

هل جربت السجن ؟ !

... ليكن . ان زيارة السجين احسن عنده من اكل اللحم وتدخين السجائر ، وهو نفس ما يعانيه نزيل المستشفى سجنت وحرموا اهلي من زيارتي . حتى الطفل الذي ولد قبل المقصلة بسنة واحدة منعوه ! !

وتضاعف عندي الاحساس بالفقد في كل مراحل بحثي عن عمل بعد خروجي من السجن . حتى عثرت على السيارة ! انها كنز كبير اعتز به . وتربطني بها علاقة حميمة تشبه ارتباط الفلاح بالارض هل جربت الفلاحة ؟ !

ليكن ... ان عيب السيارة انها لا تشبع فهي كالمراة لا تكف عن الطلب ، وكالارض لا ترويها زخة مطر ، وكالانسان قابلة للعطب والتلف ...

اوه .. المعذرة ، ارجوك ان تغفر لي هذياني ! !

ـ انني استمع اليك . ولكن قل لي كيف اشتريت السيارة ؟ ؟

ـ مت بالتقسيط قبل شرائها ، بعت نفسي عند كل بوابة وحملت القرش الابيض لليوم الاسود . بعد السجن عرفت معنى ان تكون عندك سيارة ، فضغطت على نفسي وتحملت جوع اطفالي وكدح زوجتي على ماكينة الخياطة وتلف عيونها ، واشترينا سيارة ! كنت احس احيانا ان السيارة ليست ملكي . انا اشتريتها بعرقي ودمي هذا صحيح ، لكنني المح في عيون الاخرين انهم يشاركونني بها . وكان هذا الشعور يزيدني احساسا بالفرح والبهجة يا الله! ما اعظم ان تكون لك سيارة ! !

ابتسم بارتياح ثم ضحك بارتواء ، وكأن كل مسامة من جلده تنفست واطلقت زفرة حارة وهو يدق على مقود السيارة . كان

الضباب ينسحب رويدا رويدا ، ويمر امامه كسحابة دخان راحلة .
ــ كل هذه المدة ونسيت ان اسألك عن اسمك !
ــ لا تهم الأسماء . المهم انك عملت معروفا وانقذتني من الانتظار .
ــ والى اين تذهب ؟ !
ــ لاقرب محطة . ثم اعود الى المحطة الاولى .
ــ غريب حقا ! ما دمت تنوي العودة للمحطة الاولى فلماذا! تقف بالاتجاه العكسي ؟ ثم تركب معي !!
ــ انتظرت طويلا في الاتجاه الصحيح للمحطة . كدت أموت من الجوع والبرد ، فلم تمر سوى سيارة يتيمة مكتظة ابدى ركابها تعاطفا معي ورفضوا ركوبي معهم .

ابتسم السائق بسخرية مشوبة بالحزن واليأس ولم ينقطع عن التدخين الشره للسيجارة الرابعة بينما حدق الراكب فيه باستغراب ودهشة وقال مستنكرا :

ــ لماذا تسخر مني ؟ ! !
ضحك بارتياح ، وكأنه القى حملا ثقيلا عن ظهره واجاب :
ــ لطيف ان تسألني . فلو لم تسأل لبادرت الى سؤالك . انا قادم من المحطة الاولى . قتلوا زوجتي واطفالي ونجوت بالشاحنة ، ولانني لست كالمسيح احيي الموتى فضلت التعامل مع الاحياء . وها انذا اسير بشاحنتي الى المحطة الاخيرة .
ــ المحطة الاخيرة ! ؟
قالها باستغراب فاجاب السائق :
ــ نعم . ولماذا تستغرب وكأنني ذاهب الى جهنم !
ــ هي جهنم بالفعل ! انا عائد من هناك .
ــ ارجوك لا تحطم اعصابي . لا اريد مزاحا
ــ اذن سأصمت
ــ لا . ارجوك تحدث . وماذا ايضا ؟
ــ اخشى ان تفقد حياتك . لقد ابتدعوا لعبة جديدة يسمونها المبارزة . يتنازل شخصان ويقتتلان حتى الموت .

ـ لا اجيد المبارزة .

ـ وفي النهاية ، سيقتل واحد منهما . اما القاتل فنصيبه الاعدام ، ويتم اختيار عشوائي لعشرة من المتفرجين من الجمهور ويعدمون امام البنوك والسفارات .

ـ لن احضر المبارزة

ـ الحضور الزامي لسكان المحطة .

ـ ومن يتخلف عن ذلك ؟ ماذا يفعلون به ؟

ـ يحقنونه بمصل وباء خطير . اشد ايلاما من القتل . وفي هذه الحالة لا تستطيع ان تكون محايدا .

ـ واذا استطعت ؟

ـ قتلوك

ـ يا للفظاعة ! ! والحل ؟ !

ـ ارجوك توقف سأنزل هنا

مال بسيارته الى فسحة ترابية ثم وقف . هبط الاثنان . كان الضباب قد تلاشى تماما . وبدت الشمس كالحزن الساطع على الاسفلت . كان السائق في حالة ذهول وشرود . والراكب يمد يده للوداع تطلع اليه ثم تمتم بسرعة :

ـ ولماذا لا نفكر معا ؟ !

ـ على شرط !

ـ تفضل

ـ ان يكون عنوان تفكيرنا العودة للمحطة الاولى

ـ والمحطة الاخيرة ؟

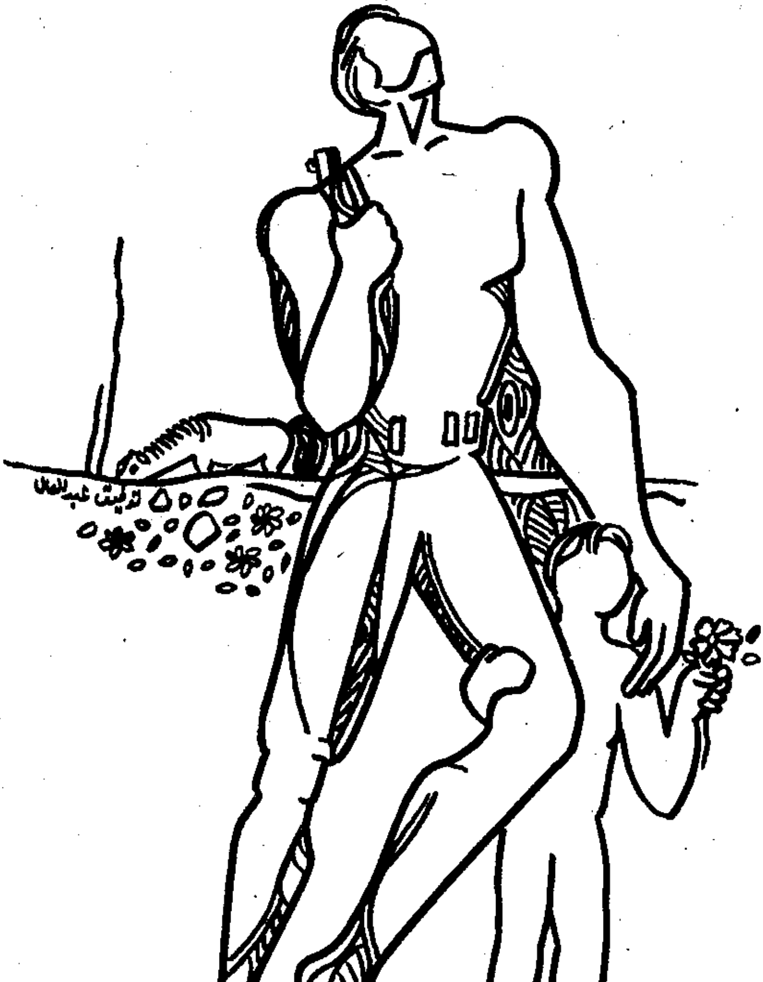
ـ سنحل لغز المبارزة

ـ اذن اجلس نفكر معا .

ـ مارس ١٩٧٣ ـ عدن

نشرت في جريدة الثوري ـ عدن ـ ٧ يونيو ٧٣ .

بانتظار الموت


توفيق عبد العال

برغم الرياح الباردة في الخارج تزرر العرق على جبهته ، ثـم راح يتمدد ببطء الى اسفل ذقنه . دق بيده على راسه ، ود لـو يكسره ، يحطم هذا الوعاء الممتلىء بالحزن والالم . ويصرخ بصوت ذاتي داخلي لا تسمعه جدران غرفته المصداة ولا زوجته المتكـورة كبرميل يقذف شتائمه .

ــ لماذا كل هذا ؟ لماذا ؟ ؟

واردف مع نفسه :

ــ قطعة الارض بالكراء ! ومئونة هذه الافواه لا اخرجها الا بالكاد . فعلام تلاحقني ! ؟ ! انا ؟ ؟

يقع بصره على الزوجة الممددة على الارض وهي تحتضـن طفلها الذي يحتضر وتبكي .

ــ آه يا حبيبي ! كل الناس تخلوا عنك حتى ابيك ! اصبح قلبه كالحجر ويرفض ان يكسر نفسه الى المختار ! لا تخجل ؟ تطلعـت نحوه واردفت :

ــ انت ! بماذا تفكر ؟ ابنك يموت وانت تدخن بلا مبالاة !

اكاد اشك في نفسي بانه ليس ابنك !

لم يجب . فرك يديه . كانت شقوقهما الجافة التي تتسـع لدخول الذباب تدمى كقشور السمك . بصق على الارض واخرج علبة لف السجائر . على الجدران متاع رمزي معلق بلا انتظام كبائعـي الملابس في الاحياء الفقيرة . والحصيرة تآكلت هي الاخرى من كثرة الفئران التي قاسمتهم مئونتهم الشحيحة التي يعزون انفسهم بها . اما الخزانة المتآكلة فقد جاءت مع العروس (زوجته) .

انه يتذكر جيدا الان حفل الزفاف والعيارات النارية التـي

اطلقت . الدبكة ، الحداء ، وتمشي على ظهر الفرس بهودج تعب به الصانعون ! اما الان . ويرمقها من زاوية عينه اليسرى . فهي ككرة ، كبرميل ، لا أثر للجمال فيه ولا انوثة . وكمذياع لا تتوقف عن الحديث ، والتذمر من هذه القسمة السوداء ! والعيشة (المرة) !

تلتفت اليه وتبادره :

ــ انت ؟ لماذا تحملق بي هكذا ! اتراني لاول مرة ! اكلت خيري ثم قذفتني كلعبة اطفال دميمة ! انت لا تتقي الله ! كل الرجال اولاد حرام ! !

ــ والنساء بنات ابليس . شيطانات ! انا لا افكر بك يا امرأة. فانت لا تستحقين التفكير انك مصيبة ابتلاني الله بها .

ــ آه مصيبة ! عينك زائغة على مين ؟ ؟ انا عارفة انهن يفسدنك عني ! من اجل ان يزوجنك البقرة الهولندية ! ابنة الحراث محمود ! والله لولا هذا الولد لتركت البيت .

ــ طز ! انتبهي لابنك !

الطفل ما زال متخشبا مكانه بلا حراك . ينظر بعينين دامعتين الى ما يجري حوله ، ثم لا يملك ان يطلب اي شيء فهتو يعرف برغم صغره ، ان قريتهم معزولة ، وبعيدة عن المدينة ، ولا احد يملك سيارة الا الاقطاعي ، هذا المختار الاعور ، مختار قريتهم . وهو على علاقة سيئة بابيه الذي شتمه باجتماع عام واتهمه بالتعامل مع العدو ضد الفلاحين ! انه لا ينس كيف غاب ابوه اسبوعا في سجن « شطة » وكيف فقد الطعام ، عدا كسرة خبز جافة يبللها بالشاي طوال اليوم . وان امه باعت خاتم الزواج لتشتري مؤونة احتياطية وهو يعرف بالتأكيد ان النقود نفدت منذ زمن، وان هذا الاب الشقي، لا يجد بجيبه ثمن كبريته ! !

كان الزوج قد انهى سيجارته ، جلس القرفصاء بركن الغرفة. احتضن رأسه بكلتا يديه وراح يفكر بصمت :

ــ انه يريد تركيعي امامه ! الف لا . ليمت هذا الطفل لتمت الزوجة ، لامت انا . اما ان اذهب اليه وعلى قدمي ... انا اذهب اليه وعلى قدمي ! ! ان طلقة في جبهتي اهون الف مرة من ذلك ! هذا العميل القذر ، ابن العاهرة ، لن يدوس رقبتي . لن يعتلي

ظهري امام الناس ! آه لو تنقلب الدنيا ! لكنها دائما بجانب الاغنياء للاسف ! لهشمت وجهه بالفأس ، وسحقته ثم حفرت على ظهره بالحديد الساخن كلمة خائن ، وربطت بعنقه كلبا صغيرا ليدور به امام سكان القرية ! ليتني استطيع اخذه الى المدينة ليبصق الناس على وجهه . صحيح انني لا اساوي عقب سيجارة في هذا المجتمع ! لكني أفضل منه ، فأنا لا أبيع وطني وكرامتي . ان كرامتي أثقل من حجارة بيته الفخم الذي بناه له الحاكم العسكري واحضر له هذه السيارة الانيقة « مرسيدس » ليتبجح بها امام القرية ، ويشمخ بكبرياء مأجور ، وهو يجلس بجانب السائق في المقعد الامامي .

ـــ انا سأعلمه كيف ادوس شاربه تحت نعلي .

قال الجملة الاخيرة بصوت مسموع فهتفت زوجته

ـــ انت . لمن تتحدث ؟ ؟

ـــ انني اهذي . انتبهي لابنك .

ـــ كيف انتبه لابني وانت كالمجنون ! ؟ انه يموت . لتكسر الف رقبة مثل رقبتك امام المختار وتأخذه الى الطبيب انه الابن الوحيد الذي بقي لنا . اتريده أن يلحقهم هو الاخر ؟ ! لاقعد وجهي بوجهك للمشاجرة ! سأخرج واركع أمامه واقبل قدميه وارجوه ان يأخذه الى الطبيب !

ـــ اذا خرجت ستكونين طالقة

ـــ ليكن ، طالقة ، طالقة ، هذا لا يهم . انه ابني ، ولم الده من بطن الحائط . الا تتذكر انني مت الف مرة امام عيونك وانت تكفر وتلعن الدنيا ! ؟ الا تتذكر اننا عجزنا عن دفع نقود (الداية) ؟ ! وقمت للعمل ثالث يوم الوضع ؟ ! انا التي تحملت كل الامك وجحودك وفقرك اكون طالقة ! ! ؟ بسيطة سأخرج .

ـــ اسمعي يا امرأة ! تعرفين انني لا اتراجع بكلمتي ! ارجو الا تخرجي .

ـــ سأخرج

صفقت الباب خلفها بعنف . كاد ينهار لقدمه . اخذ يعدو جيئة وذهابا في الغرفة ، ويرمي نظرة قلقة الى ابنه الواجم في الارض فوق قطعة (خيش) عتيقة ، ويلتحف بطانية ممزقة اكل الفأر اطرافها ويضغط على سيجارته بعنف ، ثم يدق الارض بقدميه

ـــ سأكسر عنقها ابنة الحمار ! انها تريد تلويث شرفي فـــي الوحل !

ويقترب من طفله ، ليتحدث اليه

ـــ انت بماذا تشعر يا حبيبي ؟ ايؤلمك قلبك ؟

ـــ آه

ـــ بسيطة لا تخف . سأغلي لك (ميرمية)

سمع اصوات اقدام ، هرع نحو الباب ، فتحه وقذف بنفسه خارجه ، صراخ وعويل في الخارج ، يختلط بنباح كلب . عيـــارات نارية اطلقت .

ـــ اوه . . يا ساتر !

مرق من جانبه الحراث عبد الستار وهو يركض استوقفه ثم سأله ؟

ـــ مـــــاذا جـــرى ؟

ـــ دورية للعدو تقول انها تبحث عن الفدائيين . قتلوا امـــرأة عند المطحنة ، امام دكان الحاج حسين !

ـــ ماذا ؟ . قتلوا امرأة ؟ ألم تعرفها ؟ انها زوجتي

ـــ زوجتك . . ربما سمعت اسمك ولكنني لم انتبه ، ولمـــاذا خرجت زوجتك في مثل هذه الساعة ؟ !

دفعه واخذ يعدو نحو ساحة القرية حيث المطحنة ، ولم يرضخ لنداء جندي حاول ايقافه ، ولم يبالي بعيار ناري اطلق خلفه واخطأ، كان يحدث نفسه

ـــ الم اقل لها ابنة الحمار الا تخرج ؟ ! لكن ، لماذا لم امنعها بالقوة ؟ لو منعتها لما حدث ذلك ؟ انا المسؤول .

وصل المطحنة وبحث عن الجثة . رجال ونساء يبكون حولها . اقترب منهم . فتح لنفسه ثغرة ثم ركع وتطلع الى وجهها وهتـــف دون ان يدري

ـــ الحمد لله . . انها ليست زوجتي ! !

ثم شعر بالخجل وهو ينسل من بينهم ، وتمتم لنفسه وهـــو يشق طريق العودة

ـــ سأطلقها غدا ، ما قيمة بقائها ؟ !

سرواله الفضفاض يحدث صوتا خاصا وهو يمشي . اوقفه شرطي وقال

ــ انت يا حمار الى اين ؟

ــ الى بيتي

ــ واين كنت ؟

ــ ظننت القتيلة زوجتي

ــ تعال افتشك !

اقترب منه ، راح يتحسس صدره ، بطنه ، اليبته ، والفجوة الهوائية بسرواله . ثم دفعه بقوة وصرخ

ــ انصرف ، اركض .

اخذ يلهث بارهاق ، ويمسح العرق بكم قميصه ويتنفس بصعوبة بالغة ، عندما وصل غرفته ، دفع الباب ثم فغرفاه . الطفل غير موجود . هز راسه وتمتم :

ــ آه ابنة العملاء ، سأطلقها . واتمنى ان يموت هذا الطفل .

عــدن / ١٩٧٠

نشرت في جريدة « ١٤ اكتوبر » ــ ٢٤ مايو ١٩٧٠ ــ عدن .

حنلان



صوت صرصار الليل ينتظم مع دقات قلب « فريد » وعلى الشجرة فوقه حركة فراخ عصافير . اما الطريق الترابي الى القرية فضائع في الظلام . لا شيء بائن منه على الاطلاق سوى نباح كلب في الحارة الغربية . المسافة بينه وبين القرية لا تتعدى الكيلومتر فقط ، عليه ان يقطعه وقد أخفى بندقيته تحت « كبوته » الصوفي الثقيل . تحسس « المجاند » حيث ينتظم شريط الرصاص وكيسا صغيرا به حبات برتقال . ثم واصل سيرة بحذر .

رغب في اشعال سيجارة وخاف من افتضاح امره ، تلمظ شفتيه وصمت ، قبل حوالي ثلاث ساعات كان في الجبل حيث عانقه رفاقه الثوار واوكلوا اليه مهمته ، وها هو يودع زوجته حنان قبل التنفيذ . مرت سيارة « لاندروفر » بريطانية في الشارع الترابي المجاور وسمع ضحكات الجنود السكارى وقهقهاتهم وهم يتسامرون مع فتاة شقراء يهودية . قبض زناد بندقيته ، وحدق في الظلام . جلس على الحشائش خلف شجرة « جميز » صغيرة واشعل سيجارة ويده حولها كدائرة . لو ساقوه لحبل الاعدام وطلبوا منه ان يتمنى ثلاثة اشياء لاختار رؤية حنان وتدخين سيجارة والبصق بوجه ضابط انجليزي .

البارحة نام في « دبورية » عند احد رفاقه ، حيث سهر حتى الصباح مكتفيا بالسجائر اللف والقهوة السادة بعد ان عاد من مهمة قصيرة خلاصتها قتل المختار الخائن لانه يتعاون مع الانجليز واليهود .

كانت السيارة قد غابت عن ناظريه وخمن انها متجهة الى مستعمرة « رشميا » فهي قريبة من القرية . اذن فليخرج وليمشي بالطريق الترابي ، ثم قبل ان يصل الى بيت المختار عليه ان ينحرف

الى الشمال ليدخل زقاقا طويلا في منتصفه باب حديدي يمكنه ان يقرعه . داس السيجارة ومشى حذرا يصيغ السمع ، مرهف الحس كرادار . كانت الاعشاب تغطي قدميه (ببوته) الطويل ، وبنطاله الخاكي ، تحت الكبوت الثقيل ذي الازرار النحاسية العسكرية . سمع حركة في الاعشاب المجاورة فتوقف والتفت يمنة ويسره حيث صمت كل شيء من حوله قبل ان يواصل المسير .

بالقرب من بيت المختار ، شاهد شخصا يراقبه ، وعندما طرق الباب الحديدي كان انسان في مؤخرة الزقاق يمعن النظر فيه .

ــ لا شيء يهم

طرق على الباب طرقات خفيفة ذات نغم معين ، فاستقبلته زوجته بالعناق واللهفة ، وبكت امه وهي تشم رائحة ثيابه التي غابت عنها ثلاثة شهور . نظر لصورة ابيه المعلقة على الحائط وهو يحمل البندقية قبل ان يستشهد في حوادث عام ١٩٣٦ ثم اخفض بصره ليتابع تلهف زوجته وامه للترحاب به . ولكنه سرعان ما ودعهما للقيام بمهمته ، وهو يسرع باخذ (كبوته) الصوفي الثقيل قبل ان يخرج .

على زاوية الزقاق عينان

لم يبال . سار بنفس الطريقة التي حضر بها . احس بالاعشاب تغمر حذاءه البوت . نفس الحركة احسها مرة ثانية . وجلس تحت شجرة مشهرا بندقيته الجاهزة بعد أن « استحكم » في الارض .

شبح في الظلام يقترب . اخذت انفاسه تلفح مقدمة البندقية ، ويده الاخرى على الزناد . تحسس قنابل « الميلز » في اسفل صدره وتمتم :

ــ الخطة يجب ان انفذها !

ثم استعرض ما سوف يفعله وبعض التعليمات . والشبح يواصل التقدم ، يبدو انه يقصده ، عليه ان ينسف المكتب اليهودي ، ثم يعود كما تقتضي الخطة . تخيل الورقة التي رسمها له القائد وكيف دله على اقصر طريق للنجاة ، ثم تخيل الاشخاص الذين سيقابلهم والشبح يقترب ويده على الزناد . ضغط عليه ، فندت صرخة مزقت سكون الليل من حوله ، عرف فيها صوت زوجته

حنان ، فاهتزت ذراعه ، ثم ارتعش كله وهتف بصوت مجنون

ـــ حنان !

ركض نحو الجثة ثم انحنى يبكي ، كانت تحمل له خارطة الخطة التي نسيها في البيت . تطلع الى وجهها وهو يدس الخارطة في جيبه ويغرقه الصمت . ينهال الدمع وهو يحملها عائدا الى المنزل كل الازقة نائمة الان وحتى كلاب القرية كفت عن اليقظة . وبينما هو يمددها بصمت حتى لا يوقظ أمه من النشيج ، سمع دقات قوية على الباب الحديدي وطرق اقدام واصوات تصرخ « افتح » !

شاهد الباب ينكسر ، ويدخل الجنود الانجليز يحملون البنادق الرشاشة ، جفناه يثقلان ورأسه تتضخم وهو يقفز من فوق السور باتجاه الزقاق ، ثم يطلق ساقيه ويتحسس الخارطة ويتمتم :

ـــ يجب ان انفذ الخطة . .

ترتفع الاشياء امامه ، ويرتفع نبض قلبه وهو يبتعد ، يغرق في الحشائش تاركا القرية تغط بنوم عميق ! !

القاهرة / ١٩٦٥

نشرت في جريدة جمهورية ـــ ١٦ اكتوبر ١٩٦٦ .

السماء وحفنة تراب



يجذف بكل قوته ، العرق يتمدد على وجهه البرونزي ، ثم ينساب فيشق شعر صدره ، تحت سترته المرتوقة ، وهو يلهث ويزفر ، يا رب .

وابنه الصغير في المؤخرة ، يتابع ابتلاع البحر للشبكة الطويلة بيأس وضيق .. ودلو تنزل كلها دفعة واحدة ويستريح !

تطلع الى ابنه ولاحظ ضيقه فقال بابتسامة جافة تحت اشعة الشمس الحارة .

ــ ضقت يا ولدي !.. عندما كنت في مثل سنك ، كنت انتظر من الصباح حتى المساء على أمل ان اصطاد عصفورا .. واعود فرحا بلقاء اليوم التالي لاعاود التجربة .. عندما تبحث عن الرغيف فلا تيأس ، وقد كنت أبحث عن عصفور !

تمتم الطفل بضع كلمات غير مفهومة ، واضاع نظراته بالموج الابدي !

اخرج الرجل علبة دخان .. ولف سيجارة ، ثم بصق على الدنيا ، وسرح ببصره الى معسكر الشاطىء كانت الشمس تلفح المنطقة بحرارة لاهبة، والموج يؤرجح القارب كسرير الوليد ،والشبكة تمتد ، تحت الماء ، مسافة تعادل الخمسين مترا ، ودخان السيجارة المتصاعد يحكي المأساة هناك ، في البعيد منطقة محظورة ، فيها كل السمك .

ثم أخرج كيسا صغيرا ، به حفنة تراب ، قبلها فاغرورقت عيناه ، بينما الطفل يهز رأسه لتعوده مثل هذا المنظر يوميا . حفنة التراب التي يحملها ، كانت وسادة راس شقيقه عندما استشهد في معركة الشجرة .

تغلب الطفل على صمته ، وقال وهو ينظر لابيه :
ــ متى تكف يا ابي عن رؤية الحفنة ؟

فعصر الاب الكيس ودسه في وسطه ، تحت لفة عريضة من القماش واخذ نفسا من السيجارة ثم قال :

ــ آه .. يا ولدي .. متى أكف ؟ أتعرف ؟ عندما اموت، لتوضع في فمي نفس الحفنة .. او تحملها انت .

ــ احمل التراب؟ ! دعنا نهتم بالسمك .. امي ما زالت تنتظر.

ــ لقد انتظرت أمك .. وهي في اللفة .. خمسة عشر عاما ثم تزوجنا .. دعها تنتظر يوما ، ولا تقلق .

ــ انني احس بالجوع .. اعطني كسرة خبز وبصلة .. وسأنتظر للمساء .

وبحنان الاب ، راح يملس شعر رأسه المسترسل الطويل ويهمس :

ــ لا تغضب ، ياحبيبي .. اتعبتك معي هذا اليوم بدلا من ان اتركك لدروسك .. اتعرف يا علي .. صدقني يا بني .. انني كنت انتظم بالدراسة شكليا .. اذ كنت اساعد ابي بالحصاد والحرث.. انت اليوم بنعيم ، فاحمد الله ..

فالتفت الطفل الى عيون أبيه ، واسند رأسه على صدره العريض ، ثم قال وهو يتخيل غزة ، خلف التلة المقابلة :

ــ كل ما يهمني ان ترتاح يا ابي .. وعندما اكبر ، سأدرس الطب وافتح عيادة ، تريحك للابد ... هل سترسلني للجامعة يا ابي ؟ فابتسم الاب وتنهد ثم قال :

ــ امنيتي يا حبيبي .. شرط ان نحصل على الرغيف الثابت ونصطاد السمك.. قالتلي أمكانك طلبت بنطالا جديدا .. محصول اليوم سأشتري لك به البنطال .. وقميص (برلون) بني .. يا عزيزي ، ان السمك يأكل بعضه في البحر .. فلا مانع ان تأكل جهودي فوق الارض عن طيب خاطر .. حياتي انتهت ولم يعد لها اي معنى الا بك .. تجهز يا ولدي ، لنسحب الشبكة ، يكفينا الانتظار .

بدأ القارب يتجه للشمال ، والعرق يتزرر ثم ينهال عن الجبهة البرونزية ، وشريط الماضي ، يتكتل كوهم البحر ثم يتصدع كأمواجه

... بدأ يحس بما حوله وبأنه يمكن ان يحدد لنفسه دورا ....
اشترك مع قوات حسن سلامة... وناضل في جبال نابلس .. القي القبض عليه وهو يحاول نسف شركة شل « بحيفا » ، وهرب مع خمسة من المقاتلين الاسرى .

عاد فتطوع مع فرقة التدمير العربية ، كل ما قام به ، كان يحس في صميمه انه اداء واجب فقط .

ـ ابي .. يبدو ان السمك يملأ الشبكة .. سأشتري اليوم الثياب اليس كذلك ؟

ـ حسنا .. اتمنى ذلك .

تعاون الاثنان ، تغلبا على الموج وفي ذهن كل منهما امال جانبية .. فالاب ما زال مشغولا بأبنه رياض ، تذكر خطابه الاخير واصراره على العودة في السنة القادمة ، فقد سئم المانيا وسئم حياة التشرد ويرغب في الاستقرار .

ـ الزوجة .. الزوجة .. ثم الاولاد .. ثم الموت ، ولا شيء بعدها .. آه ما اقسى الحياة .. ليتك تعرف يا رياض ان الاستقرار سجن في الغالب ، وترضى بتشردك .. لكن .. التي تختارها أبوها من اغنى التجار .. وانا صياد سمك .. هل سترضى (امل) بترك حياة النعيم لتشاركنا كسرة الخبز والبؤس ؟ !.. سأكتب له دعه يختار انسانة من طينتنا ، من مستوانا . الفقير لا يملك سلما ليصعد به الى كنوز السماء .. واذا ملكه فسيكون اخر من يصعد !!

ـ ابي كاد القارب يغرق .. بماذا تفكر ؟

فافاق لطفله ، والريح ينثر شعره على وجهه ، وبسمته المختلطة بالخوف تعرف معنى الحياة ..

ـ لا تخف يا حبيبي .. لقد غرقت سبع مرات ولم امت .. امثالنا محرومون حتى من الموت !

فشهق الولد ، وبلع ريقه ، ولعن في نفسه القدر الذي يبخل عليه حتى باجرة قص شعره كلما يطول والكتب معظمها استعارة ، اما الملابس فمرتوقة في الغالب .. ثم حاول ان يلقي بنفسه في الماء ، فمنعه الاب وربت كتفه ثم قال :

ـ قلت لك يا عزيزي لا تيأس .. المسيح صلبوه .. النبي

قذفوه بالحجارة والقاذورات وتطلع الى البحر ، وبدأ يلف سيجـارة اخـرى وهو يتمتـم :

ـــ الصيد يعلمنا الصبر والامل .. ارجو ان تعرف انك ابـن صيـاد ..

بدأت الشمس تنحرف نحو المغيب ، والاثنان يصارعان الموج .

ـــ اسحب يا علي .. شد .. شد يا ولدي .

ثم بهت الاثنان ، الرجل جحظت عيناه على الشبكة ، والطفل تحسس ثيابه وبكى بحرارة .

ـــ لا تحزن يا بني .. قم نجرب مرة اخرى . وسنصل الـى السمـك يومـا .

القاهرة / ١٩٦٦

نشرت في مجلة « فلسطين » ملحق المحرر ـــ ١٤ حزيران ١٩٦٦ .

حبّة برتقال



جلس الطفل « حسان » على الارض . راح « ينكش » بعود صغير اثلام التراب . ابوه عاد بعد أن جمع كمية من « البامية » ليبيعها في سوق الناصرة . يرفع رأسه احيانا ويراقب الفلاحين في مزارع الخضار المجاورة ، ثم يمد بصره الى مستعمرات اليهود حيث يستبق نظره لحظة ثم يعود لينبش في التربة وليرسم عليها خطوطا متقاطعة قلقة ، متشاغلا عن كل شيء ، ومستغرقا في العبث بدون هدف محدد .

ـ صباح الخير يا حسان .. ها .. ها !

رفع رأسه ، ابتسم بحب ، ثم رمى العود بعيدا وقال بحرارة :

ـ صباح النور . تعالي . اقعدي . فتشت عنك في الحارة الشمالية ثم ذهبت عند عمي . والدك طردني !

قالها بألم ، ثم تلفع وجهه الطفولي بتكشيرة هموم الثلاثين لكنها ضحكت وجلست بجواره وراحت تتسلى بكتل التراب الصلبة وتقول وهي تشعر باحراج وغضب :

ـ تصور ان ابي البارحة طرد ليلى عندما عزمتها على البيت . انه يمنعني عن كل أطفال !

يا ريت اموت واستريح من الحياة !

اخذت تبكي . نسي حسان زعله من والدها ، عمه ، وتناول منديله المزركش بالخرز والذي اهدته اياه امه عندما تفوق في دراسته في السنة الماضية . مسح دموعها بينما كاد هو الاخر يغرق في دوامة الدموع .

مر من جانبهما فلاح فوق حماره ، يحمل «الباذنجان» و«الكوسى» ويدخن سيجارة بغضب ، وعندما شاهدهما اوقف حماره ، وقال

بصوت جـــــاف :

ـــ مالك يا حنان !؟ حسان ضربك ؟ انت عفريت يا حسان ! انت شيطان .. انت اقوى من الجن .. اوه .. انت ..!

كاد يتابع سيل سبابه لولا ان سمع صوتا شفافا كنسمات البحر في ليل قائض ، ناعما ، رقيقا ، كهمسات العشاق ، تقطعه شهقات البكـــــاء .

ـــ لا يا عمي . حسان يحبني ولا يكرهني . انا ابنة عمه ونحـــن طيبين مع بعض .. كنت ابكي لاني زعلانة بس !!

تمتم الفلاح بضع كلمات لم يتداركها الاطفال ولوى رأس حماره ثم قـــال لنفسه ساخرا :

ـــ أولاد الشياطين ! انا وصلت للستين ولم اجرؤ على قول هذه الكلمة ! من علمهم اياها !؟

الدنيـــا آخر زمن ! صدق رسول الله !

قال حسان حال انصراف الفلاح كمن القى عن كاهله قنبلـــــة مفتوحة قابلة للانفجار .

ـــ انا اكره هذا الشيخ البارد . دمه مثل الثلج . ما له فينا !؟

ـــ نعـــــم

ـــ سمعت البارحة امي في الليل ، كانت تقول لامك انهـــــم سيعطونني اياك عندما نكبر !

لم تجرؤ على النظر اليه . احست بما تحس به المرأة عـــــادة عندما يفتح موضوع الزواج وتكون مرشحة له . ورغم انها طفلة الا انها كانت تفهم ان الزواج شيء غير عادي ، لذا خجلت منــــه وتشاغلت عنـــه بالنظر الى طابور من الجنود اليهود يخرج مـــن المستعمرة ثم يغيب في بطن الوادي خلف بيارة البرتقال .

ـــ حنان ! مالك ؟ ازعلت مني ؟

ـــ لا

ـــ سأبني لك عمارة على البحر ، في حيفا عند خالي . لقد قـــال لي عندما زارنا السنة الماضية انه مرتاح ومع ذلك يحب ان يهجـــر البحر ويسكن في الريف . لا ادري لماذا لا يرغب في الحضور عندنا؟ ولكنني احب البحر .. وسمعت ابي يهمس لامي انهم سجنوه .. ربما لانه لا يحب البحر !!

تطلع اليها فلم تجب فاستطرد

ــ لماذا تسكتين ؟!

ــ انا احب العيش مع امي في القرية .. واحب البيارات .

ــ حيفا كلهــا بيارات .

ــ ليست لنا . اخذوها اليهود . امي عندما تصلي تطلب من الله ان يريحنا من الحياة ان اخاها قتلوه عندما حاول الهرب الى غــزة ليقابــل اولاده .

سكت الاثنان . كانت تتطلع الى بيارة برتقال قريبة منهما . كانت لوالده حتى عام ١٩٥٤ ، ولكنهما لا يعرفان ان اليهــود سيطروا عليها . فحسان ما زال يظن ان البيارة ما زالت لابيه ، ومن حقــه ان يفخر بها وان يذهب اليها وقتما يريد ، ولم يستغرب انقطاع ابيه عن زيارة البيارة ، حيث كان يلعب مع حنان تحت الاشجار ، ورضي بتفسيره انه يحب العمل في الليل ولا يستطيع ان يأخذه معه

ــ حنان .. ما رأيك ان نلعب في البيارة

ــ لا ..

ــ لا يوجد احد هناك . ابي يذهب في الليل . ما رأيك ان احضر لــك حبة برتقال ؟

ــ لا داعي لأن تتعب نفسك .

ــ المشوار قريب ولن اتعب .. انا ذاهب

ــ لا ، حسان ، لا داعي لذلك .. لا اريد برتقالا

ازاء عنادها ، احس بالاصرار يقفز الى مخيلته فجأة فقال :

ــ انتظريني وسأعود ، سأحضر حبتين لك ولي .

لم ينتظر ليسمع ردها ، فقد قفز فرحا واخذ يعدو نحو البيارة ويغني اغنية شعبية فلسطينية . ثم يلتقط ثمار الخضار في طريقــه تخيل نفسه كبطل شجاع اثر عودته وهو يضع حبة برتقال كبيرة بيد حنان الصغيرة ثــم يراقبها وهي تأكل كبطة انيقة .

صوته الرفيع يقطعه لهات الجري وبعض الاشواك الصغيرة انغرزت بقدميه العاريتين ، وصوت فلاح يحذره من الجري داخل خضاره لانه يدوسها تحت قدميه ويكسر عيدانها ، لكنه لم يلتفت

لاحـــد . كان ذهنه راكدا كمستنقع لا يفكر الا في حنان وحبـــــــة البرتقـــــال .

ــ مالهم ومالي ! بيارة ابي وانا حر بها !

وعندما عرف الفلاح وجهته صرخ عليه بصوت مرجوج خائف، واخذ يحذره من الاقتراب من البيارة . ثم اخذ يجري خلفه ، لكنـــه سبقه وانيدس تحت السلك وانفاسه اللاهثة تتمرغ على الارض . مزق السلــك ثوبه من الظهر . لم يبال . اندفع لاول شجـــرة ، وكانت أغصانها متدلية فلم يجد جهدا في اختيار حبتين كبيرتين ، ثم عاد يركض نحو السلـك .

تطلع الى البرتقالتين وضحك ، ضمن شعور حنان الطيب بعد أن تأخذ حبتها الكبيرة وتشكره بضحكة ناعمة ، وارتمى تحت السلك، كانت يداه خارجة تحمل كل يد حبة برتقال . رأسه خارج السلـــك نصف صدره وبقية جسمه ما زالا في الداخل . الفرح يغمره كفرحة زارعي القمح بالمطر . ولكنه ما كاد يزحف قليلا حتى سمع صـــوت طلقات رصاص . لم ينطق بشيء ! قبض على البرتقالتين بشدة ولم تعـد هناك انفاس تلفح الارض . أما الطريق الى البيارة فقـــد امتلأت بالفلاحين ، كل منهم يولول ويندب حظ القتيـــل العاشر المسكين . كانت على الطريق ، مع الرهط الزاحف حنان .

القاهرة / ١٩٦٦

*** نشرت في مجلة « فلسطين » رقم ٦٢ ــ ملحق المحرر العدد ١١٢٦ ــ الخميس ٢٣ آذار ١٩٦٧ .**

خمس دورات



صرخ احمد وهو يركض فوق ساحـــة مفروشة بالاشواك ، مخلوطة بحصى الرمل ، حافي القدمين ، وسوط جلاده « حاييم » يمزق لحم ظهره ليتابع الركض بسرعة . الساحة ملطخة بالدم من اقدام الفدائيين والمناضلين العرب ، والشوك الاحمر تتقصفـــت اطرافه لكثرة ما لسع من اقدام رجال . هذه اول مرة يسير فيهـــا احمد تحت السياط ، وفوق الشوك والحصى المزركشة بالاحمـــر والابيضـــــــس .

اطراف الشوك تغوص في قدميه فيصرخ ، وتتأرجح الصور أمام عينيــه .. امه تشق الصور الباهتة وتظهر والى جانبها ابوه يرجوه ان يكف عن فكرة الالتحاق بالثورة « فللمعركـــــة رجال غيره ! » وتوسلات زوجته العاتبة ، ونظرات صغار ثلاثة بريئة تتمسح به ، رفض طلبات الجميع وصرخ في وجوههم :

ــ حب الوطن اقدس من حب الامومة ، تريدون ان اتخلف ؟ ولم لا يتخلف كل رجل في مثل سني ! اذن لضاعـــت الثورة .. لا ، لا سألتحق بالثورة رغم انوفكـــم .

اصوات نشيجهم تصفعه وهو يغادر المكان ، ولعنات امـــه وتهديدات والده بالتخلي عنه ، .

ويدور أحمد الدورة الثانية ودموعه تسح على خديه وفمـــه مسترخ فلم يعد قادرا على الصراخ ، والشوك والساحة والجلاد والسوط .. ينتزعونه من واقعه ، يرمونه بعيدا ، حيث لا ساحة ولا شوك ولا جلاد .. الى « ساحة المفخرة » حيث وقفت جموع من الناس غفيرة تنتظر الباص ، والرذاذ يتساقط باستمرار . رياح تشرين تصفع وجهه بشدة وهو يصعد « باص بلد الشيخ رقم (١) »

ويأخذ مكانه بصعوبة لازدحام الركاب ، ثم جلس واشعل سيجارة ، ويده اليمنى تحت (كبوته) الثقيل تتحسس شيئــا ما . وتتطايــر دخان سيجارته وتكثف مما ازعج السيدة التي بجانبه والتي طلبت منه ان ينفث الدخان بعيداً عنها لانها تكره الدخان والمدخنين !

مد يده من الشباك والقى بعقب السيجارة فتنفست المــراة الصعداء ، وهو ينزل امام جامع الإستقلال ، وبعد أن ادى فريضة العشاء ، فضل ان يسير على قدميه وخاصة ان السماء كفت عــن المطر ، وحركة الرياح خفت قليلا ، فقطع ما تبقــــى من شارع (جسر رشميا) ثم انعطف الى شارع فرعي ، فاذا به امام (مركز بوليس الحسبة) والجنود يتبخترون بالبستهم السوداء حاملــــي الاسلحة سريعة الطلقات .

لم يلتفت كثيرا وهو يذرع شارع (وادي النسانيس) ، واخذ يسير الهوينى ، لان الطقس استهواه ، وحيفا ، تلك التي رافقت مولده حتى شبابه ، لم تظهر بمثل هذه الروعة التي تتجلى بهــا الان ، والاضواء الكهربية تتكسر في برك الماء الصغيرة والمتجمعة في الشــــارع .

وقف للحظة ، وارتفعت دقات قلبه وهو يستجمع شتــــات افكاره ويتمتم لنفسه : (العملية في غاية الصعوبة) ، ثم يتحسس ما في سترتــه تحت (الكبوت) ويتمتم : « الاعمار بيد الله » .. ولكن هواجسه لم تتخلى عنه ، افكاره تضطرب ، الحوادث المرعبة تمــر كشريط مسجل ، انه يذكر حادثة القوات العربية الفلسطينية حين طوقت هذا الذي سيراه ، في مستعمرة (كفارى خيسكل) .

« ابو دره ورجاله بقيادة خليل المصري عجزوا عن قتله فكيف بي » أنا !؟ قال لنفسه ثم استطرد : « سأتوكل واقوم بمهمتي ... لن يكون أشد حرصا من (يوسف تلمي) سيذوق مصيره » .

واندفع الدم الحار في عروقه ، وهو يجتاز (ساحة الحناتير)، ها هو يصل ، لــم يبق امامه الا بضعة امتار ، ويدخل بعدهــا مقهــى (مشيل) اليهودي . وهذه الامتار القليلة تحمل ضعف ما تحمله من السير مسافة الكيلومترات السابقة ، ها هي الانوار تشع من مقهــى مشيل فحدث نفسه :

« وليكن الطوفان .. لم الخوف ؟.. الانسان يموت ميتة واحدة » ثم دلف الى الداخل .

عيناه ترقبان الباب باهتمام زائد والدم يتفجر بركانا في عروقه لا بسبب الحماس فقط وانما بسبب الخوف ايضا ، فهذا اول مرة يقوم فيها بمثل هذا الدور منذ ان خرج من السجن قبل سنة تقريبا، وعلى اثر محاولة لقتل (دافيد بوم) قائد قوات لواء جلبوع . الدقائق تتمرغ بطيئة قبل ان تموت وضجيج لاعبي (الشدة) يتزايد وهو فريسة القلق ، ثم ظهر (مردخاى) ببزته العسكرية وجسمه الضخم الذي يشبه البغل الى حد ما ، وجلس على الطاولة المحاذية له فابتسم ابتسامة الانتصار .

سيطرت الخمرة على مردخاى ، ولم يعد قادرا على التمييز او التفكير الواعي ، فاستغل احمد هذه الفرصة وانتقل من طاولته الى طاولة مردخاى واخذ يلاطفه في الحديث فسر مردخاى كثيرا وتمنى ان يلتقي به كل ليلة !

حل احمد بنود (كبوته فغطى بذلك اطراف الطاولة وسمح لنفسه بيسر وسهولة ان يضع القنبلة تحت الطاولة بل تحت مردخاى بالضبط ثم بعد أن فرغ من مهمته نهض وحاول الخروج فاستوقفه مردخاى واصر على بقائه حتى الثانية عشرة ! الدقائق تمر ، واحمد يكاد يفقد السيطرة على نفسه وينوي الهرب امام الجميع ، دقائق معدودات ثم تثور القنبلة ، ومردخاى يقول بلهجة السكارى :

ـ ما دمت مصرا على الذهاب .. سآتي معك .

ـ لا .. لا ابق هنا سأعود انا بعد لحظات .

فقال مردخاى مقهقها : دعك من المواعيد .. ولتحتسي كأسا من الخمرة فهو يساوي كل الذين ستقابلهم .

فعقد احمد ما بين حاجبيه وارتسمت دلائل الخوف على وجهه ، وذعرا قاتلا يموج في عينيه فتظاهر باللامبالاة وقال بشيء من الرضى :

ـ اقسم لك بشرفي انني لن اتأخر كثيرا .

واخذ يبتعد تدريجيا ومردخاى يرجـــوه ان يبقى ، وثوان معدودات باقية تسرع في السير . احمد يفرك يديه خائفا غاضبا ، وهو يتراجع باستمرار ، يكاد يصرخ .. وانفجرت القنبلة وطارَ مردخـــاى !

ويدور احمد الدورة الثالثة باعياء شديد ، اذ تصلب الدمع في عينيه فلم يعد يقوى على الانهمار ، وجف ريقه فتقلصت شفتـاه وبلـل الدم قميصه من سياط الجلاد ، الشوك لم يعد يغوص في قدميه لعدم وجود فراغ بينهما ، الساحة تدور امام عينيه ، وبصره الزائغ يمزق شعر لحية الجلاد . ووقع بصره الحائر على بـاب الساحة حيث قدم قبل دقائق من غرفة التعذيب .. هو ، جالس على ارض الغرفة الفسيحة ، ورائحة فضلات الخيول تعبق جـو الغرفة ، والحديد يعض ساقيه ويديه ، فأحس بالقيد في كل شيء الا بشعر لحيته الذي اجيزت له الحرية .

الجلاد يهوي على وجهه صارخا بحشرجـة : ايـن الثوار ؟ فيقابله — احمد برد خافت : في المعركة فيحملق به ويلطمه لطمات متوالية يقطعها بسبابه : ابن الكلب.. ابن الحيوان.. ابن الـ ... ابـــن الـ ...

وينخشه بسكين صغير في صدره ، نزف الدم على اثرها فتقدم الخبير المكلف بتعذيبه وطلب من الجلاد ان يتوقف وينصرف ، وبعد ان خرج قال لاحمد — بعد ملاطفة قصيرة — : « لقد أسأنا فهمك .. اعذرنا .. التعذيب لا يجدي نفعا .. ما دمت اسيرا عندنا فمـن الخير ان تفكر بالطريقة التي تريحك .. سنطلق سراحك اذا اخبرتنا بأماكن الثوار .. أما النقود فها هي المئات منها ثم ما شأنك أنـت بالثورة .. أنت شاب عليه أن يمتع شبابه ، لا ان يضيعـه بـين الجبال .. وسنزوجك بمن تريد ولكنك لن تحصل على شيء اذا بقيتعنيدا مصرا على الانكار .. ما رأيك ؟»

فأجاب بابتسامة صفراء ، وهزة من رأسه تعني الرفض .

— يا صديقي فكر جيدا سأتركك الى الغد .

وعاد في الغد ليرى ما النتيجة فصدمه جواب أحمـد بجرأة : « الدراهم .. يا صديقي النصوح لن تمنحني وطنا اعيش فيـه بحريـة .. وامتاع نفسي بمجتمع دنس مثل مجتمعكم لهو حقارة

أعجب كيف تسألني عنها ، اما خيانة الثورة فهذا مستحيل لو قطعت اربا اربا » .

فحدق به غاضبا وقال بحزم : « حسنا ما دمت كذلك فسأريك العذاب » .

وتتوالى هزات احمد فوق الكرسي الكهربي دون جدوى وهو يكاد لا يرى شيئا من تورم وجهه اثر الكدمات الكثيرة حتى كادت عيناه ان تختفيا ، فيصرخ الخبير من جديد : « جهز لي الساحة بالشوك والحصى » .

وتنتهي الدورة الثالثة فيحاول ان يدور الرابعة ، وبقية من عزم تبقيه واقفا يترنح وصور بطولته تظهر بأبهى رونق .. هجومه على مستعمرة (كفر ناحوم) وقتله قائدها ثم مشاركته في حصار مستعمرة (مشمارهاعميك) ومدفعه الهاون يقذف باتجاهها صور زاهية تشجعه ولكن الى حين .

الدورة الخامسة بدأت كزحف النمل والسياط* لم تعد تتهاوى على جسده اذ لم يبق منه مكان غير مبلل بالدم . صوت الجلاد ، هل تعترف ؟ اذا اعترفت سأوقف العذاب . لا يحمل جوابا فلم يعد يستطيع الاجابة . طفلاه خالد وابراهيم يشقان حجب الصمت والشوك والسياط ويتمثلان امامه بضحكة بريئة ، وعلى عكس هذه الصورة كان حال زوجته ، عيون كالدم من كثرة البكاء ، وثوب قديم حدادا عليه ، صور متباينة تتصادم .. امه طريحة الفراش ، وابوه لا يعرف الا عصاه ، مسؤول عن حطام هذه الاسرة ، ارضهم تلك التي اضطر والداه الى بيعها ، صور حياته تمر امامه كشاشة سينما ، وصوت الجلاد يرتفع بغضب شديد :

هل تعترف ؟ وهو يوالي الزحف .

صوت الجلاد يصرخ من جديد . سأطلق النار اذا لم تتكلم . واحمد يكاد ان يتهاوى من شدة الاعياء ، ثم تكوم جسدا بلا حراك اثر طلقات ثلاث من فوهة مسدس الجلاد .

اربد / ١٩٦٣

*** نشرت في مجلة « القصة » ـ المصرية ـ العدد السادس ـ السنة الاولى يونيو ١٩٦٤**

الفهرس

الثمن ٥٠٠ ق.ل. او ما يعادلها